لارا

ومن الحب ما قتل

قصص

سيد عبد الحميد



دار اكتب للنشر والتوزيع

لارا

ومن الحب ما قتل

لارا
ومن الحب ما قتل

سيد عبد الحميد
الطبعة الأولى، القاهرة 201 م
غلاف : أحمد فرج
تدقيق لغوي : خالد رجب عواد
رقم الإيداع : 3540 /2019
I.S.B.N: 978- 977- 488-637-9



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

إهداء أول

إلى المزاجيين، مُتقلبي المزاج كموج البحر، المُعقدين والمُهتمين دائمًا بأدق التفاصيل وأبسطها، الوحيدين للغاية؛ من يفتقدون لأحدهم لمشاركتهم النُكات والموسيقى، من لا يجدون من يلتقط لهم الصور الذاتية فجأةً، الحزانى لأبسط الأسباب وأتفه الأمور، الصامتون في التجمعات والمناسبات الاجتماعية والعائلية، الهاربين من الزحام التام والصامتين دائمًا، العاشقين في صمت خوفًا من خذلان جديد، أصحاب الحس العالي والمُرهفين، أصدقاء الكتابات الحزينة والواقعية، مُرافقي الكُتب أينما رحلوا، الضاحكين وبداخلهم مآتم الكون، وأصحاب الابتسامات الصادقة..

إليكم فقط.

أنتم أعظم وأجمل بني آدم، أنتم الرفاق، من يستمتعون بالحياة رغم الألم.. استمتعوا بالحياة قدر استطاعتكم..

هذه نصيحتي لكم، حافظوا على عقولكم الناضجة، استمروا في المحاولة في الحصول على حياة أفضل، فهناك حيوات كثيرة جديرة بالمحاولة، وهناك مشاعر جميلة لم تشعروا بها بعد، سلامًا لكم وعليكم حتى نهاية الألم ونهاية المأساة.

سيد عبد الحميد.

إهداء ثان

إلى أسرتي، من يتحملون حزني واكتئابي بلا سبب.

أحبكم كثيرًا. إلى اول من منحتني لقب الخال. الجميلة "جنى أحمد متولي" أحب ضحكتك كثيرًا. الخال الوالد الحاج أحمد عبد الله رحمه الله، أفتقدك بشدة.

ليتك معي الآن.

إلى الأصدقاء علي عبد النبي والكاتب فتحي محمد، شكرًا لكل ما نصل إليه معا يا رفاق.

إلى أحمد زناتا.. شكرا لكل دعمك يا درويش.

الصديقين ياسر منصور ومحمد عبد الوكيل..

إلى مخلص العدوي داعمي الأول وأبي المخلص وصديقي الكبير وأحب الناس إلى قلبي. شكرًا لك دائمًا.

إلى العراب دكتور أحمد خالد توفيق رحمه الله..هنيئًا لك الرحيل يا أبانا من قبح عالمنا أنت تستحق الأفضل.

إلى صديقي الكاتب محمد طارق شكرًا لأنك ساهمت ولو بجزء بسيط لأستطيع التعبير عن نفسي بالكلمات. ولها دوما تلك الجميلة التي اتت فجأة ورحلت فجأة سلامًا طيبًا على ذكريات الماضي البعيد.

ولكل ما رحل ولكل ما هو قادم.

***

مقدمة

أنت هنا لتهرب من قسوة العالم..هنا ملاذك الوحيد، العالم في الخارج لا يرحم أصحاب القلوب..هنا أنت في عالم آخر اقص فيه ما قد عشتهُ من تجارب..

تجرد من كل ما بداخلك من أفكار عن الأمل والتفاؤل، فأنا لا أكتب إلا عن آلامي وأوجاع الآخرين وحزنهم العميق ووحدتهم البائسة.

انزع كل ما بداخلك من خجل أو خوف، الحياة في الكتب أصبحت صعبة والألم لا يرحم أحد. كل الأبطال هنا أصدقاؤك، أقاربك، ربما أنت البطل الوحيد وسط كل هذه المأساة.. ربما بعد كل هذا الحزن الدفين الكامن بأعماقك والألم غير مبرر والبؤس الدائم والمعاناة الصامتة و الشعور بالوحدة، ربما يتغير كل هذا للأفضل يومًا ما، وربما تعيش علي هذا الأمل البائس كل يوم وتموت دون أن ترى شيئًا يتغير للأفضل.

اني أثق أن الانتظار هو ألعن الأشياء في هذه الحياة.. إنني أعلم مراره وقسوته، صدقني أن من قالوا: أن تأتي متأخرًا أفضل من ألا تأتي لم يذوقوا مرار الانتظار ولدغات عقارب الساعة المميتة، لم يأكلهم التفكير ولم يصبهم الأرق بسبب عدم المجيء. ما فائدة أن يأتيك أحدهم متأخرًا بعد أن يأكلك الحزن، بعد أن يجف نزيف جرحك ويتبقى مجرد ندب!

أحدثك عن مرار الفراق وقبح النهايات وألم الفقد المستمر، عن الخذلان من أقرب الناس ووجعهم عن الوحدة ومرار قهوتك الصباحية

ومرافقتك لسجائرك في كل وقت؛ عن لعنة المعرفة التي تؤدي إلى انطفاء البريق الساذج في عينيك.

إن الحياة رحلة مدفوعة الأجر من آلامنا وأحلامنا الضائعة سدّي وأوجاعنا الصامتة، ولكننا لا نملك حق إنهاء الرحلة فهذا ليس في عقد الاتفاق!

أنتِ أيضًا يا عزيزتي لم تسلمي من براثن الحزن، الاكتئاب، الوحدة، والوجع من أقرب الناس لكِ، لم يُخلق أحد منا إلا وقد ذاق ألم النهايات الحزينة واستمع إلى كلمات المواساة الباردة.. صدقوني أن الحزن لا ينتهي ولا يذوب، قد يهدأ قليلًا حتى يأتي عليه حزن جديد، قد يتوقف الجرح عن النزيف حتى يُجرح مرة أخرى بطريقة أقسى ليكون أعمق من السابق حتى يترف إلى آخر قطرة دم ويستهلك آخر دمعاتك..

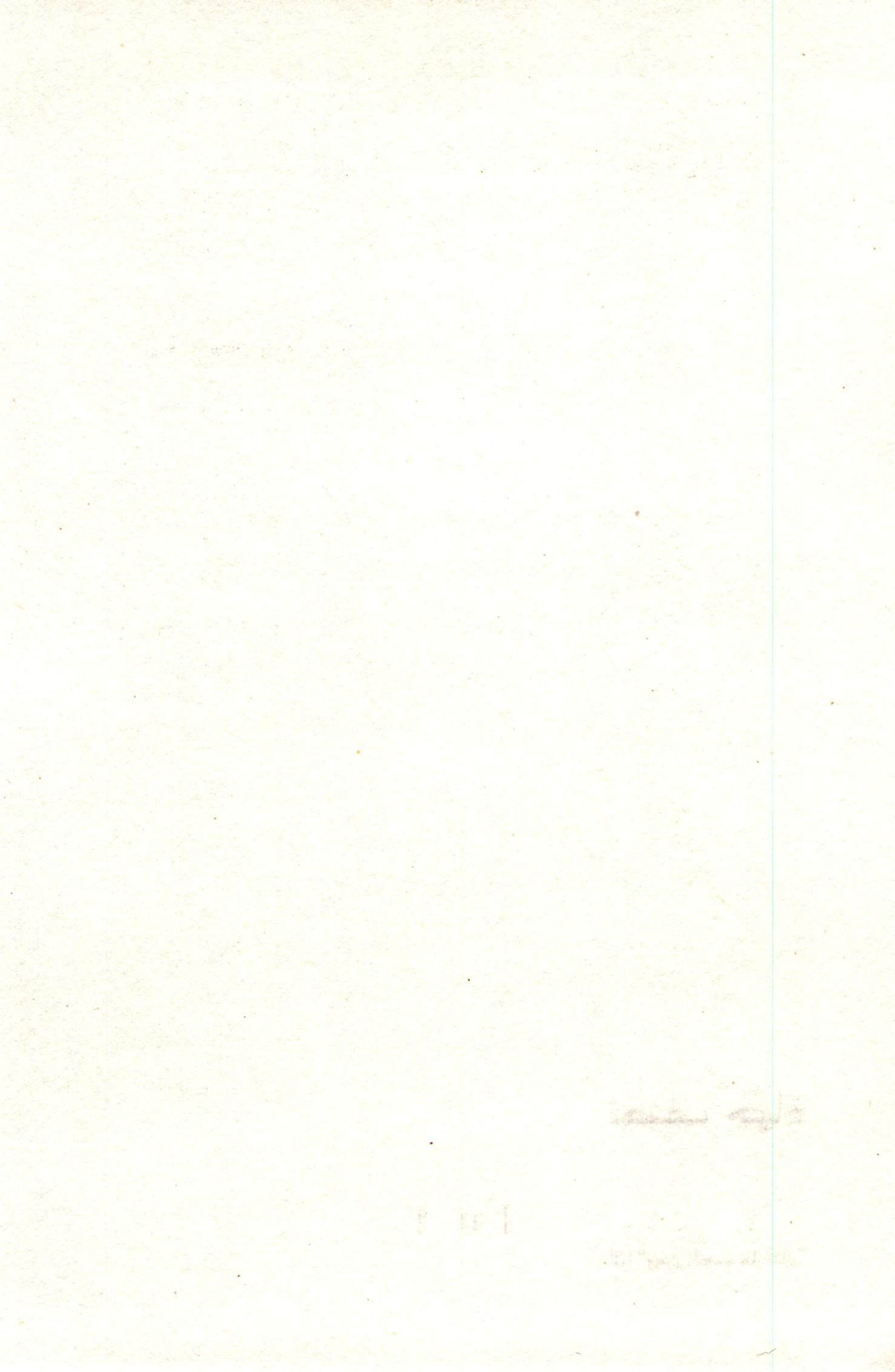
هذا الكتاب ما هو إلا أول تجربه شخصية في مجال الأدب، أنا أرحب بك وأهديك هذا الكتاب، وأتمنى لك قراءة ممتعة، وأنتظر رأيك بشغفٍ جم.

إذا أهداك أحدهم كتابي؛ فاعلم إنك عزيز لديه ليضع مجهودي ومحاولتي بين يديك.

تجرد من كل ما بداخلك من أفكار عن الأمل والتفاؤل، فأنا لا أكتب إلا عن آلامي وأوجاع الآخرين وحزنهم العميق ووحدتهم البائسة.

***

نصف حياة



ربما بعد كل هذا الحزن الدفين الكامن بأعماقك والألم غير

المبرر والبؤس الدائم والمعاناة الصامتة والشعور بالوحدة يتغير كل

هذا للأفضل يومًا ما!

استيقظ في صباح يومٍ حار. إن أغسطس لا يعرف إلا الجفاف.

ظل على فراشه ما يقرب من عشرين دقيقة جامدًا كالحجر لا يفعل شيئًا سوى التحديق إلى الفراغ!

نهض من الفراش بحثًا عن بداية يومٍ مملٍّ آخر في حياة لا تعرف الشغف، مر بردهة منزله الواسعة وتوقف مُحدقًا إلى المرآة التي تعكس صورته في صمتٍ تام، واقترب منها أكثر حتى كاد أن يلتصق بها.

ثلاثة وثلاثون عامًا من اللاشيء، وجه يغزو أكثره شعر لحيته الأشعث غير المهذب، عينان لونهما أسود قاتم تكادان أن تكونا خاويتين من المشاعر، وفمٌ دفن بين شفتيه الكثير من السجائر الشرعية والمحشوة، رائحة الخمر تنبعث منه حتى يكاد المرء يستنشقها من على بعد مترين. جسد نحيل يشبه جسد مراهق لم يتعد الثامنة عشرة بعد.

صامدٌ في خواء هذا المنزل الذي تظن أن صاحبه قد فارق الحياة منذ زمن بعيد. كان قد قرر اليوم زيارة والديه اللذين لم يزرهما منذ فترة، مات والداه منذ زمن في أثناء عودتهما من الحَجِ.

انقلبت بهما السيارة التي تنقلهما من المطار إلى أقصى جنوب أسوان حيث مسقط رأسيهما ولقيا حتفهما.

باقي ركاب السيارة لم يتأذوا كثيرًا رغم بشاعة الحادث، ولكن إرادة الله شاءت أن يبقى خالد وحيدًا ويتيمًا وهو في الحادي والعشرين من عمره.

كان في الصف الثالث من كلية الهندسة آنذاك، وكان على مشارف امتحانات الفصل الدراسي الثاني حين أتاه خبر وفاة والديه. تلقى الخبر بجمودٍ صادم للبعض وكأن من توفيا غريبيان، ليسا بأبيه وأمه، ذهب إلى قريته بعد أن تسلم جثتي والديه من المشرحة ثم أعد مراسم الدفن ودفنهما في مدافن أسرهم في أسوان. عاد بعدها إلى الجامعة وكأن شيئًا لم يكن. حاول أصدقاؤه معرفة ما به من خطب ووقع الخبر عليه لكنه كان يواجههم بجمودٍ ويتصدى لهم بردودٍ جافة.

حتى حبيبته التي ارتبط بها منذ خمس سنوات حين كان في الصف الثاني الثانوي لم تستطع فهم ما به. "كان خالد يقيم في القاهرة مع عمه خلال المرحلة الثانوية حيث طلب أبوه أن يكمل الشهادة الثانوية في القاهرة حتى يرتفع بمستوى تعليمه، وكان عمه يقيم في القاهرة منذ زمن بعيد ورحب بخالد كثيرًا، خصوصًا أنه لم يتزوج وذلك لأنه لم يهتم بالأمر حتى شاب شعره ونسي الأمر وكأن قدوم خالد سبب في فرح شديد له لأنه سيتخلى عن وحدته الصارخة وقد تكفل أبوه بكل مصاريفه في القاهرة. رغم الحاح أخيه عليه في الأمر ولكنه رفضه تمامًا.

وقد أتم خالد الثانوية في مدارس من ذوي المستوى الرفيع في الزمالك ولم يكن يبخل أبوه عليه بأي شيء في سبيل تعليمه. هناك التقى بإيمان وكانت مجرد زميله في الدراسة تطور بهم الأمر إلى صداقة ثم إلى حب فترة المراهقة، ولكن الحب لم يؤثر على تفوقهما فدخلا كلية الهندسة معًا ثم توفي عمه في بداية دراسة السنة الأولى له بكلية الهندسة، وكان هذا أثر مرض السرطان.

أكمل خالد الحياة في منزل عمه وحيدًا يزور أبويه في إجازة منتصف العام وفي الصيف. أدى خالد امتحانات الصف الثالث ونجح بتقدير جيد جدًّا، وهذا كان إنجازًا لأن أغلب أصدقائه رسبوا في هذه السنة وحده وإيمان وبعض من زملائه قد اجتازا الامتحانات بنجاح، ولكنه تفوق عليهم جميعًا، أيضًا كان خالد ممن يطلق عليهم " الدحيحة" بالعامية، وهم أولئك الذين يعطون المذاكرة أولوية عن أي شيء آخر مهما يكن بسيطًا.

ذهب إلى البلد بعد ذلك ليبيع ما يملكه من إرث عن أبويه فهو كان وحيدًا. وكان أبواه ميسوري الحال. باع كل شيء ثم عاد إلى القاهرة واشترى الشقة التي يقيم فيها الآن؛ لأنها كانت من نظام الإيجار القديم. اشتراها ثم وضع ما تبقى من مال في البنك ليعيش على ما يدره عليه البنك في أول كل شهر من فوائد. كان خالد قليل الكلام في جامعته ومع زملائه مثال للشاب الممل. شخص في كل سنة يحصل على درجات عالية لا يهتم بما يهتم به أقرانه في الجامعة. لا يتحدث، لا يتشاجر مع أحد، لا يتحدث إلى الفتيات، لا يدخن.

كان في صغره مصابًا بمتلازمة الصراخ، كان يصرخ كل ليلة كالمجذوب؛ يستفيق من نومه في جزع وهلع وجسده يتصبب عرقًا بالكامل كأنه كان في سباق مئة متر حواجز! كانت طفولته عبارة عن مأساة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقد طاف به أهله الكثير من أطباء الأطفال وأجمعوا جميعًا أنه لا يعاني أي مشكلة عضوية، وربما يوجد في المنزل ما يؤذيه نفسيًا!

وفي يوم استيقظ ليجد نفسه وحيدًا في ظلام الغرفة الدامس وقد خُيل إليه أنه رأى خيال أحدهم في الغرفة. أخذ يصرخ حتى راح صوته، وما إن دخل أبوه وأمه الغرفة حتى سقط مغشيًا عليه. كان يخشى البقاء وحده كثيرًا، وكان يصرخ كلما لم يجد أحدًا حوله في المنزل سواء أبوه أو أمه. وكان كلما تقدم به السن شيئًا فشيئًا كانت متلازمة الصراخ تبتعد عنه حتى قد لاحظ أهله أنها اختفت تمامًا ولكنه كان يبكي.. كان يبكي لأتفه الأسباب..

يبكي عندما يصبه المرض أو يغضبه أحد أو حتى أي شيء.

تخرج خالد في الجامعة وكذلك إيمان وما إن ظهرت نتيجة الكلية حتى قرّر التقدم إليها فمع كل هذا الحب الذي ظن أنه سيبقيه معها إلى الأبد لأنه يعشقها ولأنه يخاف شعور الوحدة دونها ولكنه صُعق برفض والدها له بصراحة شديدة لأن مستواه المادي لا يكفي حتى مصروفات إيمان الأسبوعية حيث كان أبوها رجل أعمال كبيرًا وعضوًا في مجلس الشعب وذا سطوة ونفوذ.

كانت إيمان تختلس السمع للقاء خالد مع أبيها وما إن سمعت رده حتى أجهشت بالبكاء.

خرج خالد من منزلها وعلى وجهه حزن شديد لو وُزع على مدينة لفاض من شدته. رأت إيمان نظرة خالد لها وهي تبكي وهو مُثقل بما سمع من أبيها.

وما إن خرج خالد من منزلهم حتى دخلت إيمان إلى والدها.

- ليه كده يا بابا؟

- مينفعكيش يا إيمان.

- ليه؟ ليه مينفعنيش، مين قال كده؟ أنا بحبه.

قالتها إيمان وفاضت عينيها بالدموع.

- الحب وحده مش كفايه يا بنتي، انتي يلزمك حد يليق بمركزي ومركزك مش حد يبقي طمعان فيكي وفي فلوس ابوكي ولا ياخدك ويشحت بيكي.

- بس أنا بحبه، ومستعدة أبدأ معاه من الأول.

- اه ونبدأ من الصفر وطوبة فضة وطوبة دهب وكلام الأفلام بتاعكم ده، صح؟!

كانت لهجة أبيها ساخرة تميل للغضب.

- وليه لا؟

– عشان ده مش هيعرف يعيشك زي ما انتي عايشة. انتي عارفة مصروفك بس كام؟

– هبدأ معاه حياته. أنا بحبه.

ما إن قالتها حتى ضعفت قواها وملامح الغضب التي لا تناسب وجهها.

– الحب وحده مش كفاية يا بنتي أنا أعرف أكتر منك.

– وأنت لما اتجوزت ماما مكنتش بتحبها؟!

صمت والدها قليلًا ثم قال:

– لا.

– لا؟!

– أيوه، لا. أنا اتجوزت أمك عشان كانت ست كويسة ومناسبة بس مكنتش بحبها.

صُدمت إيمان لما تسمع وكأنها ترى أباها لأول مرة على حقيقته.

– أمال اتجوزتها ليه؟

– عشان اعرف أعيش وأبدأ حياتي. أنا كنت مكافح أه وكنت بشتغل عند أبوها لحد ما مسكت شغله كله وشوفت انها هتقدر تساعدني إني أنجح في حياتي.

صدمت إيمان لما تسمع؛ المال أهم عنده من أي شيء آخر حتى سعادة ابنته.

- يعني عشان مصلحتك؟

- أيوه، مصلحتي وبس وبعدين انتي مصدومة كده ليه؟ عشان بقولك الحقيقة.

أمك الله يرحمها كانت ست مناسبة وكانت عارفة أنا اخترتها ليه وعمرها حتى ما فكرت انها تهيني ولا تفكرني بأصلي بس كنت عارف انها بتكرهني عشان اتجوزتها غصب عنها وبموافقة أبوها مش بقرار منها زي ما هي كانت عايزة. وزي ما انتي عايزة تعملي بس هي معصيتش ابوها ووافقت وادينا عيشنا سوا سعدا لحد ما ربنا افتكرها.

- أنا بجد مش مصدقة.

صُدمت إيمان في أبيها فهي لم تكن تعرف الكثير عن علاقة والدها مع أمها، فكانت تعيش في ترف. تخرج وقت ما تشاء وتعود وقت ما تريد، لكنها كانت ناضجة وتفعل ما يحلو لها بحدود داخل تربيتها.

- الموضوع ده مش عايزك تفتحيه تاني.

- أنا بكرهك.

صفعها والده صفعة قوية فأغشي عليها بعد ذلك.

***

كان خالد في حال يرثى له. فقط سمع من والد إيمان ما يجرح كرامته وكبريائه ولزم البيت لفترة طويلة. لا يتحرك إلا لقضاء حاجته من طعام يسد جوعه أو الذهاب للحمام. لم يحاول أن يصل إلى إيمان فقد علم من صديقة مقربة لهما أنها في المستشفى منذ أكثر من أسبوعين لأنها تعاني انهيارًا عصبيًا. وقد قرر أن ينساها ولو حتى نسي كل شيء في حياته. أدمن شرب الخمر وتدخين السجائر والحشيش. ظل على هذا الحال كثيرًا. منزل غير مرتب، حياة بائسة. شاب مخمور معظم أوقاته. يلقي جسده بأي مكان في المنزل حتى يغلب عليه النعاس.

أتته مكالمة من إيمان. كانت الأولى منذ يوم مقابلته لوالدها أي منذ قرابة السبع شهور!

فما إن رأى رقمها على شاشة الهاتف حتى انتفض من مكانه وتذكر ما كانوا فيه وشاهد ما هو فيه الآن من يأس وداء.

- إيمان!

- إزيك يا خالد.

سؤال لم يعتد أحد أن يسأله له منذ فترة طويلة.

- متخيلة اني عامل ازاي دلوقتي؟!

- أنا هتجوز يا خالد.

كلمات كانت خارج السياق تمامًا. شعر أن قلبه يسلب من مكانه وكأنه صُعق بتيار كهربائي قوته تنير مدينة كاملة في ليل حالك.

- أنا هتجوز حد غيرك يا خالد؛ هتجوز عشان أبويا موافق.وهددني لو رفضت هيمحيك من على وش الدنيا.

كان تهديد أبوها واضحًا وصريحًا لها لو أنها رفضت الزواج ممن اختاره لها فسيمحي خالد من الدنيا تمامًا.

كانت الكمات قاسية على قلبه كالحجر الجاثم على الصدر ولكنه تلقى الكلمات بجمود كما تعود أن يفعل.

- مبروك يا إيمان!

!!!!!!

- ايه مستغربة؟! اتجوزي اللي أبوكي اختاره أنا مش محتاج تبرري لي، أنا عارفك أكتر من نفسك وعارف أد ايه بتحبيني. اتجوزي وحاولي تعيشي دنيتك. الدنيا لازم تكمل حتى بعد ما اللي بتحبيهم ما يمشوا. فاكرة الكلمة دي قولتهالك لما أمك ماتت لما جيتي تعزيني في موت عمي وبعده أبويا وأمي.

كانت إيمان تبكي لردة فعل خالد. ليس لشكها في حبه فهي تعرف كم يعشقها، ولكن لكم المشاعر الكامنة بداخله والنابعة من كلماته. كانت بالفعل هي نفس الكلمات التي قالها حينما أبلغته تعازيها في وفاة كل من رحلوا. كانت الكلمات تثير مشاعره. أراد أن يكمل ولكن غلبه السعال..

- مالك؟

- لا مفيش فاكرة لما قولتيلي بحبك قولتلك ايه؟

صمتت للحظات وقالت:

- مش هنكون لبعض، الدنيا بتاخد مني كل حاجة بحبها وأنا بحبك أوي.

- كويس انك لسه فاكرة. فاكرة اول هدية مني ليكي كانت إمته وكانت إيه؟

بكت إيمان بكاء شديدًا وقد بدا واضحًا عليها في حديثها:

- سلسلة نص مكتوب فيها لا إله إلا الله وخليته معاك، ونصها الثاني اللي مكتوب عليه محمد رسول الله.

ضحك خالد في مرارة.

- كويس إنك لسه فاكرة، خدي بالك من نفسك، الحياة لازم تتعاش حتى بعد ما بعض الناس يسيبونا حتى لو بنعشقهم

أغلق الهاتف ولم يتح لها فرصة للرد لأنه قد دخل في نوبة عالية من البكاء والثور أخرج الشريحة وكسرها ثم كسر الهاتف وأخذ يصرخ ويبكي كما عهد ان يفعل حينما يشعر بالوحدة والغضب حتى يبلغه الإعياء أو يغيب عن الوعي.

استفاق بعدها بأيام لم يعلم عددها وقد قرر أنه يجب أن يتعايش مع رحيلها كما عاش بعد رحيل عمه ثم أبيه وأمه. ولكن كيف؟ وكان قد سانده في رحيل كل هؤلاء إيمان! سيعيش بعد رحيل حبيبته الأولى

والأخيرة آنذاك! قرر أن يلتزم بما يقول ويفعل به وأنه سيتعايش. بحث عن عمل في إحدى الشركات التي تطلب تعيين حديثي التخرج وقد تم تعيينه فور اجتيازه الاختبارات. ولِمَ لا وهو حاصل على شهادة بتقدير عام امتياز في مجال هندسة الميكانيكا من بعدها الحياة رتيبة للغاية. يذهب للعمل صباحًا متأنقًا، ويعود مساءً في حالته الاعتيادية الرثة ولكنه حاول أن يعتاد.

لم يفارق السجائر والخمر لأنه وجدهم أنيس لوحدته القاتلة. لم يحاول أن يقترب من النساء لأنه اعتبر أنها ستكون خيانة لإيمان ساكنة قلبه. حتى رغم محاولات زميلاته اللاتي رأينه جذابًا وناجحًا بما يكفي ليكون زوجًا أو حتى عشيقًا، ولكنه كان يبعدهن عنه بشدة حتى لا تتجاوز واحدة منهن حدودها معه.

مرت حياته هكذا رتيبة مملة لا تحتوي أي جديد؛ في الصباح إلى العمل ثم بعده إلى المنزل يشرب الخمر ويدخن حتى بعد منتصف الليل. سارت معه الحياة هكذا حتى حدث ما لم يحدث من قبل. كان في نهار يوم عمل شاق كعادته يذهب هنا ويتجول هناك للاطمئنان على صحة الأمور الجارية فجأة سقط مغشيا عليه. نقله أصدقائه بسرعة إلى مستشفى؛ كانت لمالك الشركة التي يعمل بها. ظن زملاءه أنه مرهق من كثرة العمل أو ما شابه. اطمأنوا عليه جميعًا ثم انصرفوا بعد أن طمأنهم الطبيب بحالته شبه المستقرة لكنه سيبقى اليوم في المستشفى حتى يتم عمل فحص شامل والاطمئنان التام على صحته ثم مغادرة المستشفى غدا.

قام بعمل الكثير من الفحوصات في قلق ظهر على وجهه رغم محاولات الطبيب لطمأنته. خرج في الصباح بعد مواعدة الطبيب بلقاء آخر الأسبوع القادم لاستلام نتائج التحاليل. ذهب إلى مقر عمله وقد وجد أن صاحب الشركة نفسه قد استقبله في رغبة للاطمئنان عليه، فإن التقارير تشير إلى انه متفوق جدا في عمله وجاد وحازم جدًا وهذا هو النوع الذي يحبه كل رب، عمل. كتب له إجازة لمدة أسبوعين لراحته من الاجهاد. رغم رفضه التام ولكنه كان أمرًا مباشرًا لم يستطع أن يعترض عليه. ذهب إلى منزله وكان قد بلغه الإعياء كثيرًا فقرر النوم متقبلًا لأمر جفونه المتثاقلة. استيقظ صباح اليوم الثاني متعجبًا من نومه يومًا كاملًا فهو منذ سنوات طويلة لم يحظ بإجازة كهذه فعزم أمره على السفر لأسوان لزيارة قبر والديه. لم يستعد كثيرًا فهو وحيد ولا أحد يهتم لأمره ثم إنه لن يمكث في أسوان سوى بضع ساعات ثم يعود.

حجز القطار المتوجه لأسوان وقد علم أن المسافة ستأخذ قرابة الأربعة عشر ساعة فقرر أن ينام طوال الرحلة في نومه جاءته رؤى لوالديه الذين ظهرا له لأول مرة في منامه. كان يرتديان الزي الأبيض كمن يزور بيت الله الحرام وكان وجههما كالبدر في ليلة تمامه. ظلا يناديان خالدًا كثيرًا ما أنه رآهم حتى أقبل مسرعًا حتى يلحقهم ولكنه كان يجري وكأن الأرض تميد من تحته ولم يستطع اللحاق بهم ثم استيقظ. استطرد ما حلم به لوهلة ثم جال في خاطره أنه لربما ذاهب لوالديه فشعرا به!

وما إن وصل إلى أسوان حتى توقف واستوقف تاكسي طالبًا منه أن يذهب به إلى المدافن، وما إن نزل حتى أعطاه حسابه وانصرف متجهًا نحو قبر والديه. شعر أنه استرجع كل ذكريات طفولته أمام عينه، لهوه ولعبه ومرضه وتوقفه. كل شيء مر أمام عينه فبكى كثيرًا على حاله وعلى ما وصل إليه، بكى على وفاة أمه وأبيه القاسية. بكى وكان قد تذكر إيمان التي لم تغب عن خاطره أصلًا. وكأنه لم يبكِ منذ حين. لا يعلم عدد الساعات التي جلس فيها يدعو لوالديه ويطلب لهم الرحمة والمغفرة.

خرج من المقابر وما إن توقف عند الطريق السريع حتى أشعل لفافة تبغ ليرثي به نفسه قليلًا فهو اعتاده رفيقًا دائمًا. وما إن وقف قليلًا حتى شعر بدوار شديد أصابه. كأن طبول روما قد دقت رأسه لم يفق إلا ورأى سيارة حاول أن يستوقفها لتنجده ولكنها صدمته دون عمد!

توقف سائقها لوهلة من هول الموقف وما إن رأى في مرآة سيارته خالدًا والدم يسيل منه بغزارة حتى هرب سريعًا خوفًا من أن يراه أحد. بعدها بثوان مرت سيارة أخرى لاحظ سائقها خالد وهو ملقًى على الأرض غارقًا في دمائه حمله في السيارة وذهب به إلى أقرب مستشفى، وما إن وصل به حتى أخذه المسعفون على سرير نقال إلى غرفة العمليات. مكث بالداخل قرابة الأربع ساعات وكان بالخارج الرجل الذي نقله للمستشفى. لم يكن يعرفه قط لأنه لا أحد يعرف خالدًا في أسوان! حتى أنهم لم يروه في دفنة أبيه. ولكنه كان يملك من الرحمة ما يكفي لإسعافه.

أخذوا بطاقته وطلبوا الشرطة للرجل الذي قال لهم ما رآه وأنه ليس لديه أية معلومات عن السيارة التي صدمته وأنه لا يوجد بينه وبين خالد اية صلة. خرج الطبيب من العمليات وعلى وجهه الكثير من الخيبة.

– احنا عملنا اللازم والباقي على ربنا، لو عدا ال **48** ساعة اللي جايين دول على خير هيعيش.

قالها وترك الرجل حائرًا أمام غرفة العمليات وما إن خرج خالد إلى غرفة العناية المركزة حتى لحق به الرجل فوجده بحالة يرثى لها. انتظر قرابة الخمس ساعات، وما إن شاهد خالد يستفيق عبر الزجاج الشفاف الحاجز بينهم حتى دخل الغرفة. بادره خالد الحديث.

– إنت مين؟

– أنا يا إبني اللي لقيتك مرمي عالأرض غرقان في دمك بعد ما خبطتك عربية وهربت وانا اللي جبتك هنا.

– أنا مش عارف أقولك ايه؟

– متقولش حاجة يا رب تقوم بالسلامة.

– أنا مش عايز اشيلك مسئوليتي، هات حد من المسؤلين في المستشفى عشان أقولهم انك ملكش أي علاقة بالحادثة.

– أنا حكتلهم وهم فهموا الموقف الحمد لله.

زفر خالد بارتياح بعد كلمات الرجل الأخيرة وفجأة أخذ صدره يعلو ويهبط في محاولة لالتقاط أنفاسه. ضغط الرجل على الزر الموجود بجانب

السرير لكي يأتي أي أحد من طاقم التمريض ليراقب حالة خالد! أسرعت إحدى الممرضات إلى الغرفة طلبت من الرجل الخروج فانسحب بهدوء ثم بدؤوا بمراقبة الأجهزة الموصولة بخالد.

مرت ثوان كانت كالساعات على خالد الذي لم يهدأ حتى بدأ مفعول الحقنة التي حقنته بها الممرضة يسري في وريده. في الصباح آتى نفس الرجل إلى المستشفى معه باقة ورد ما إن دق على الباب حتى سمح له خالد بالدخول.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

رد خالد السلام، فقدَّم له الرجل باقة الورد فقبلها منه خالد في امتنان وود حقيقي.

- عامل ايه النهاردة يا خالد؟

نظر له خالد باستغراب.

- حضرتك عرفت اسمي منين؟

- من حاجتك اللي معايا من ساعة الحداثة وتليفونك اللي مبيبطلش رن.

- هو حضرتك اسمك ايه؟ لامؤخذة يعني أنا لحد دلوقتي معرفش اسمك ايه بعد كل اللي انت عملته معايا يعني.

ضحك الرجل في سرور وتفهم رد فعل خالد وجاوبه سريعًا:

- أنا يا عم اسمي عبد الله الصواف تاجر عطور، انت فعلًا مهندس ميكانيكا؟

- اه والله مش باين عليا ولا إيه.

قالها خالد بضحك وابتسامة ساخرة على وجهه فارتبك الرجل وظن أنه أخطأ فقال بلهجة محاولًا الأسف:

- لا والله يبني مقصدش بس شكلك صغير يعني اعذرني!

- ولا يهمك يا أستاذ عبد الله أنا مش عارف أشكرك ازاي.

قالها خالد بامتنان حقيقي، فلولا عبد الله الصواف لكان خالد في عداد الموتى.

- تشكرني علي يا حبيبي ده انت زي ابني.

شعر خالد بالأسى بعد كلمات الرجل فقد تذكر والديه الذين تركا الدنيا منذ وقت بعيد فتذكركم هو مشتاق لهم في محنته هذه أكثر من أي وقت مضى! لاحظ الرجل تأثر خالد بما قال فحاول أن يخفف الأجواء قليلًا.

- إلا صحيح يا بني قبل ما انسى في حد عمال يتصل بتليفونك من امبارح الظاهر كده انو عاوزك!

تعجب خالد لوقع كلماته لأنه من المعتاد لا أحد يحادث خالدًا ولكنه توقع أن تكون مكالمة من شخص بالعمل

– هي لسه حاجتي معاك؟

– اه يا بني اطمن المحفظة زي ما هيا والتليفون والمفتاح كمان أنا مردتش أسلمهم عشان دي أمانة ولازم أردها.

ابتسم خالد لكلمات الرجل لأنه شعر بها بدون أي تكليف مثل سعادتك، حضرتك! تلك الكلمات التي بسمعها ويكرهها كثيرًا.

– طب الحاجة معاك دلوقتي يا حاج

– اه يا ابني هتروح فين اهي.

أخرج الهاتف وبعض الأشياء من جيبه فوجد خالد أن رقم السويفي على الهاتف.

– ألو.

– ألو أيوه يا عم هو انت عشان أخدت الإجازة يعني مش هترد علينا الله يسهلك.

قالها السويفي بسخرية جعلت خالد يضحك لضحكه ولسخرية القدر منها.

– والله يا أستاذ ممدوح انت لو تعرف أنا فين دلوقتي هتعرف أنا مستمتع بالأجازة أد ايه!

قالها وضحك رغمًا عنه لما فيه.

- يا ترى بقى يا عم خالد شرم ولا الغردقة.

لا والله استنى ثواني أسألك.

- عم عبد الله، التفت له الرجل، المستشفى ديه اسمها ايه؟

- الحياة ببني مستشفى الحياة الاستشماري.

شكره خالد في هدوء عاد لمكالمته مع ممدوح:

- أيوه يا ممدوح بيه أنا هنا في مستشفى الحياة الاستثماري في أسوان

- ايه يا خالد انت هتهزر ولا ايه؟ ضغط ممدوح على كلماته في قلق كما يقوله خالد.

- لا والله أبدا انا مبهزرش، أنا في مستشفى الحياة اللي في أسوان.

- نعم! وايه اللى وداك هناك الله يخربيتك.

مفيش أبويا وأمي كانوا وحشني أوي بس شكلي كنت هروحلهم بس لولا عم عبد الله يكرمه. قال كلماته ونظر لعبد الله الصواف في امتنان.

- طب اصبر انا هجهز نفسي واجيلك بكرة أو بعد بكره بالكتير أزورك واطمن عليك.

- ملوش داعي يا ممدوح بيه!

– ايه هو اللي ملوش داعي يا بني انت هتستعبط! روح الله يخربيتك بقى أنا أديك أجازة عشان ترتاح رايح تموت! انا هجهز نفسي وهجيلك اوعى ترجع قبل ما اجي.

– لا أرجع ايه الدكاترة بيقولوا فيها أسبوع خد راحتك.

– طب خلاص ماشي خلي بالك على حالك. في رعاية الله، سلام.

قالها ثم أغلق الهاتف وقد بدا عليه التأثر لحال خالد.

كانت علاقته بخالد علاقة فريدة من نوعها، فخالد عين لديه بشهادته فقط دون أي خبرة، ولكنه كان ذكيًّا.. تعامل مع ناس كثيرين وأحبوه لطيب معاملته وحسن خلقه معهم وتدرج خالد سريعًا في مناصب مختلفة حتى قرر أن يقابله السويفي مرة ليعرفه عن قرب فغير معقول أن يمتلك موظفًا كفئًا مثله ولم يقابله من قبل ولا مرة.

كان خالد متوترًا في بادئ الأمر فقد اعتقد أنه ارتكب خطأ ما سيرفد على أثره من الشركة في حين أن السويفي لم يتح معلومات لأي أحد ليعرف الشأن المطلوب فيه خالد. ما إن دخل خالد المكان حتى ذُهل لما رأى!

بهو واسع، قطع أثاث تبدو أنيقة للغاية كما يشاهدها في التلفاز، النجف، الإضاءة، المكتب.

كل شيء كان يوحي أنه في مشهد في فيلم من أفلام هوليوود.

– إيه يبني مالك في إيه؟

تفاجأ خالد بالسؤال.

– لا أبدًا مفيش يا فندم.

قالها وعدل من هندامه ليبدو لائقًا أمام مديره.

– تعالي اقعد واهدى.

نفذ خالد الأمر كمنوم مغناطيسي (الهيبة لها شأنها كما يدعون).

– انت خالد بقى يا عم اللي واجعين دماغي بيه!

بدا الاندهاش على خالد واضحًا كالأبله:

– مش فاهم وواجعين دماغ حضرتك بيا ليه يا فندم؟

– والله أنا كل شويه أسمع من حد أصل المهندس خالد عمل أصل خالد اقترح أصل البشمهندس كتر خيره. ولاحظت ان شغله كله مظبوط وبسم الله ما شاء الله ترقيات ايه يبني انت صح بس ولا ايه مبتغلطش؟!

صُدم خالد مما سمع فقد كان بالفعل ملتزم في عمله ويحاول أن يحافظ عليه ليس لشيء سوى أنه لا يمتلك أي أشياء أخرى يمكنه الحفاظ عليها.

– والله يا فندم أنا مش عارف أرد أقول ايه لحضرتك. هو مفيش حد مبيغلطش بس أنا الحمد لله أخطائي كلها لنفسي متعودتش أضر حد ولا أأذي حد.

قالها متوجسًا خيفة.

– طيب انت متجوز؟

- لا يا فندم.

ليه ياض انت معقد. " قالها بسخرية".

- معقد!

- اه معقد، واحد زيك مهندس وشاب ومش وحش يعني ليه متجوزتش، أكيد معقد.

- لا والله يا فندم بس الحكاية كلها ان ليا حكاية كده وخلاص يعني خلصت ومن بعدها مش عايز أخش في تجارب زي المراهقين كدا يعني سايبها بظروفها. كان كلام خالد صحيح في نصفه الأول فيما يخص حكايته وكان النصف الآخر قد اختلقه ليخرج من مأزقه في الحديث مع السويفي.

- بص يا ابني عمومًا انا استدعيتك وحبيت اني اعرفك إني فخور بيك واني كمان قررت انك تكون مدير مشروع مصنع السيارات اللي هيفتح في العاشر.

انفرجت أسرت خالد كثيرًا لما سمع فتلعثم ولم يجد ما يقوله معبرًا عن سعادته بإدارة مشروع كهذا.

- شكرًا جدًّا يا فندم وإن شاء الله هكون عند حسن ظن حضرتك.

- هو انت تعرف تبقى غير كدا، دا أنا أنفيك،

قالها وأخذ يضحك وضحك خالد لكلماته.

ما إن أنهى كلامه حتى استأذن خالد وغادر المكتب في سعادة بالغة...

***

استخرج عبد الله الصواف خالد من ذكرياته عندما لاحظ شروده بعد إغلاق المكالمة.

– إيه يا ابني سرحت في إيه؟

– لا أبدًا يا حاج. هو أنا هخرج إمته؟ قالها في ضيق فهو لم يحب الجلوس في المستشفيات

– ربنا يسهل احنا كنا فين وبقينا فين نحمد الله.

– الحمد لله. أنا مش عارف أشكرك ازاي يا حاج عبد الله.

– مفيش شكر ولا حاجة. أنا هستأذن أنا بقا.

رحل عبد الله وترك خالدًا وحيدًا، ضغط خالد على الزر أسفل السرير فجاءته الممرضة بعدها بلحظات.

– لو سمحتي هو أنا ممكن أعرف هخرج إمته؟

– هو أنا معرفش والله بس أنا سمعت الدكتور بيقوا ان حالتك محتاجة ملاحظة مش أقل من أسبوع أو 10 أيام.

تضايق خالد لما سمع كثيرًا.

– شكرًا.

انصرفت الممرضة.

وحاول خالد النوم لتمضية الوقت.

***

في اليوم التالي جاء ممدوح السويفي إلى أسوان. زار خالد في المستشفى وأخبره أن تكاليف علاجه كافة ستتحملها الشركة نيابة عنه.

خرج خالد في اليوم التاسع له في المستشفى بعد أن أكدوا له ان يداوم على الفحص كلما شعر بأي مضاعفات.

موسيقى الهاتف تتعالى في صوت صاخب وكأنها موسيقى تصويرية صاخبة.

دقات المنبه تعلن أنها السابعة ميعاد استيقاظ خالد للعمل. لا يوجد أسوأ من منبه يدخل في أحلامك ليزيدها سوءًا ورعبًا ويقلق نومك الذي حاولت جاهدًا الحصول عليه بعد صراع مرير مع الأرق. يفتح خالد عينيه في إرهاق. مرت عشر دقائق محاولًا استيعاب أنه قد استيقظ.

دخل الحمام الموجود بغرفة نومه ثم خرج ليرتدي ملابسه الرسمية معلنًا عودته لأيامه الرتيبة مرة أخرى.

ارتدى خالد بزة سوداء في غاية الأناقة بمقاس أكبر قليلًا مما اعتاد ليخفي نحافة جسده الواضحة من فترة الحادثة وساعة روولكس ونظارة راي باي.

دلف إلى المصعد سريعًا ومنه إلى سيارته المركونة في الجراج منذ فترة ليست بالقصيرة. وصل خالد مقر عمله في تمام 8:45 وما إن مر بخطواته

في ممرات الشركة حتى انهال عليه زملاؤه في العمل بالتهنئات والقبلات الباردة كصاحبيها. وما إن انتهى من هذا الود المصطنع وغير المرغوب فيه حتى دلف إلى مكتبه المكدس بالكثير من الأعمال التي لم تنجز بعد. أشعل سيجارة ثم اتصل برقم البوفيه لحظات قليلة حتى دلف المكتب "عم صبحي". أقدم عامل وفي الشركة وبالطبع آتى حاملًا صينية بها فنجان القهوة "الخصوصي" للبشمهندس. لم يفوته بعض المجاملات والتهليلات لعودة خالد سالمًا إلى عمله مرة أخرى. لم يمر كثير من الوقت على خالد في مكتبه وحيدًا دقائق ودخلت عليه أمنية دون استئذان.

– ممكن ادخل؟!

– انتي دخلتي أصلًا، اتفضلي اقعدي.(قالها خالد في امتعاض بدا واضحًا عليه.)

– حمد الله على السلامة يا خالد. رمقها خالد في نظرة صارمة فعلاقتهما لم تكن تصل إلى درجة أن تناديه باسمه دون لقب "البشمهندس". أدركت خطأها وفي محاولة لاصلاح الموقف ردت سريعًا:

– : نورت مكتبك يا بشمهندس.

شكرًا يا بشمهندسة، خير!؟ قالها في تأفف.

– خير. خير إن شاء الله. عرفت موضوع مناقصة مشروع تونس.

– لا معرفتش والله أنا الفترة اللي فاتت كنت غايب عن أي حاجة.

قالها خالد ساخرًا فامتقع وجه أمنية.

- باختصار شديد يا بشمهندس الشركة كانت داخلة مناقصة مع عدة شركات ثانية من الشرق الأوسط لتنفيذ مشروع كبير في تونس وشركتنا الحمد لله كسبت المناقصة دي والشركة قررت ان في ناس من مصر لازم تسافر علشان تشرف على المشروع. انت ازاي متعرفش حاجة زي كده ده الشركة كلها بتتكلم عن الموضوع ده. انت معندكش أصحاب هنا ولا ايه؟

- أنا مليش في لعب العيال ده.

- لعب عيال؟!وهي الصداقة من امتى بقت لعب عيال يا بشمهندس؟!

- أي حاجة فيها تضييع وقت تبقى لعب عيال يا بشمهندسة وبعدين أنا مالي بالرغي ده كله. بدت أمنية في موقف محرج للغاية وكأن وجودها غير مرغوب فيه.

- رغي! عمومًا أنا حبيت أبلغك أن السفر الأسبوع الجاي فياريت تجهز نفسك.

- أجهز نفسي لإيه؟

- للسفر مهو انت من ضمن الناس اللي الشركة قررت انهم يتولوا موضوع الشركة في تونس.

صعق خالد مما سمع.

- مين اللي قرر القرار ده؟

- بشمهندس ممدوح وأعضاء مجلس الإدارة يعني القرار جاي من فوق يا بشمهندس. بدت لهجة أمنية تميل للشماتة بعد أن لاحظت عصبية خالد مما قالت.

- أستأذن أنا بقى يا بشمهندس، بعد اذنك.

في لهجة عصبية بدت واضحة استوقف خالد أمنية.

- استني عندك بشمهندس ممدوح فين؟

- مش هنا والسكرتارية قالت إنه مش جاي النهاردة لم تعطه فرصة لردة فعل أخرى فخرجت وصفعت الباب في حركة استفزازية أخرى ثم اتجهت إلى مكتبها فوجدت زميلتها بسنت في انتظارها.

- ها عملتي إيه؟!

- فشلت، كالعادة يعني.

- فشلتي ازاي يعني انتي مقولتيلوش انك مسافرة معاه أصلًا؟

- مكنش يعرف وأول ما قولتله كأن ركبه 100 عفريت لو كنت قولتله كان طردني من المكتب!

- يعني ايه متبسطش يعني؟

- بقولك ركبه 100 عفريت يا بنتي. أنا تعبت والله

- أنا مش عارفة عاجبك فيه ايه يا أمنية ده شكله معقد حتى.

- بحبه يا بسنت بحبه هو فيه حاجة اسمها عاجبني فيه إيه.

– يا بنتي حرام عليكى اللي بتعمليه في نفسك ده انتي بقالك سنتين معلقة نفسك ورفضتي ييجي 20 عريس وكل ده ولا هو حتى واخد باله منك.

– يعني عيزاني أعمل إيه؟ أروح ارمي نفسي قصاده وأقوله أنا بحبك وانت مش واخد بالك بقالك سنتين!

– مش قصدي يعني يا حبيبتي بس انتي صعبانة عليا.

– أنا بس نفسي ياخد باله مني شوية سنتين معاهه في كل المشاريع اللي بيتكلف بيها مفيش مرة قالى كلمة حلوة حتى! حتى السفر طلع عين أهلي عقبال ما خليت البشمهندس ممدوح يوافق إني أسافر واني أقدر أقنع أهلي بالسفر.

ربنا ينولك اللي في بالك يا حبيبتي وأفرح بيكي.

يا رب يا بوسي يا رب.

أنهى خالد بعض الأعمال المتراكمة بعقل شارد تمامًا بعد ما ألقته أمنية على مسامعه. فهو اعتاد ما هو عليه الآن من وحدة وفراغ حتى زملاؤه الذين لم يجد صديقًا واحدًا فيهم قد اعتاد وجودهم وتبديل هذا كله بين ليلة وضحاها سيصبح أمرًا مستحيلًا له.

ما إن دقت الساعة السادسة حتى ألقى خالد ما بيده من أوراق لم تنته بعد وذهب إلى جراج الشركة واستقل سيارته إلى وسط البلد حيث محل

الخمور الشهير الموجود هناك وكان خالد قد اعتاد أن يشتري منه بعض الأشياء المفضلة لديه.

وحين عاد إلى المنزل كانت عقارب الساعة تشير للسابعة وعشر دقائق وكان الصداع قد بلغ منتهاه فوجد أن الحل هو الغوص في حوض الاستحمام مصحوبًا بماء ساخن علّه يساعده على الاسترخاء.

***

خرج من الحمام وجلس يدخن ويشرب ما يريد في عصبيه لما هو مقدم عليه. فقرار السفر هذا جعله مشتتًا للغاية.

قرر أن يحادث ممدوح غدًا ليثنيه عن هذا القرار.

***

السابعة صباح اليوم التالي.

دقات المنبه تتعالى لتتداخل في كوابيسه كالموسيقى التصويرية!

يتقلب خالد في مضجعه بتأفف ليعلن ثورته على المنبه ويلقي به عرض الحائط ليخمد صوته المزعج. ويكمل نومه..

*يقال إن الأحلام هي تجسيد لكل ما يدور في عقلنا الباطن وكل ما نفكر فيه في أثناء اليقظة يتجسد في الأحلام كحقائق!

فالميت يستفيق والحي ربما يصبح ميتًا في أثناء حلمك وإن لكل حلم تفسيرًا حتى وإن غاب عنك لفترة ما* حلم بأمه وهي تقبل جبينه ولكنها لم تحدثه!

استيقظ متأخرًا وصل إلى عمله وقد تجاوزت الساعة العاشرة والنصف بقليل. اتصل بسكرتيرة ممدوح طالبًا موعدًا لمقابلته.

ساعتان ونصف من العمل المتواصل من إنهاء أذون وبعض التصاميم والاستشارات أنهى فيهما علبة سجائره وما يقرب من 4 أكواب من القهوة.

حينما انتهى من أعماله ذهب إلى مكتب السويفي.

ثلاث خبطات على الباب كالمعتاد ثم أدخل بصوت ممدوح السويفي.

دلف خالد إلى الداخل وما إن جلس حتى بادره السويفي بالحديث:

– ها يا بشمهندس جهزت الورق؟

فوجئ خالد ببداية الحديث فقد كان يأمل في حوار ودي يبدؤه بمقدامات معتادة وينهيه باعتذار مقبول عن أمر السفر ولكن ممدوحًا لم يعطه فرصة.

– ورق إيه حضرتك؟

– نعم يا حبيبي؟!

قالها ممدوح بعصبية.

– ورق السفر يا بني.

– في الحقيقة لا يا بشمهندس، أنا كنت جاي أتكلم مع حضرتك في الموضوع ده أنا بصراحة مش عايز أسافر.

– نعم!! مش عايز إيه؟

– أسافر.

قالها خالد بصوت خافت بعد ملاحظته أن السويفي سيبدأ بثورة عليه.

– ومش عايز تسافر ليه بقا إن شاء الله يا بشمهندس؟

بدا لخالد أن الأمر أصبح قابل للنقاش.

– بصراحة يا بشمهندس انا مش هعرف اتاقلم هناك، بلد غريبة وناس معرفهاش وبعدين حضرتك عارف اني لسه راجع من حادثه كنت هموت فيها. يعني صحتي بقت أسوأ من الأول. وبعدين أنا مكنتش أعرف أي حاجة عن الموضوع.

– يا بني الموضوع كله حصل وانت في الحادثة بتاعتك ومكنش في وقت أقولك يعني. وبعدين انت وراك إيه يعني انت ملكش حد هنا ولا متجوز مش هترضي تسيب مراتك وحتى ابوك وامك متوفيين

اكفهر وجه خالد إثر كلمات ممدوح فقد نكأ جرحه دون عمد.

لاحظ ممدوح الحزن الذي ظهر على وجهه وأدرك خطأ كلماته ولكن بعض الكلام رصاص لا يعود أبدًا بعد إطلاقه. حاول تصحيح كلامه مرة أخرى.

– أنا آسف يا بني مقصدش والله بس انا اقصد السفرية دي في ناس سابت اللي وراها واللي قدامها عشان تسافرها. اللي ساب بيته ومراته وعياله وأهله، كل واحد فيهم عنده هدف عايز يوصله وكلهم عندهم طموح، ليه انت كمان متبقاش زيهم؟!

لم يجبه خالد ولكنه اكتفى بالنظر إليه ثم التحديق إلى الأرض.

– انت هناك هتبقي مدير بجد، قبض 3 أضعاف وبالدولار كمان، العمالة كلها هتبقى تحت إيدك. شغل فعلًا مش هزار. وبعدين ياض مش ممكن عقدتك دي تتفك في تونس.

رمقه خالد بتعجب فضحك ممدوح وأكمل حديثه:

– تتجوز ياض واحدة حلوة كدة من تونس الخضرا.

ضحكا معًا ثم طلب خالد الانصراف مع وعده لممدوح بإعادة التفكير في أمر السفر.

بعد قضاء اليوم في تشتت وحيرة من أمره، قرر خالد السفر!

علها تكون بداية وعلة تغيير لحياته بأكملها.

***

وفي خلال الأسبوع جهز خالد كل الأوراق المطلوبة للسفر بتسهيلات من السويفي بالطبع.

في المطار ودع ممدوح السويفي كل طاقم العمل وأوصى خالدًا بهم وبالأخص أمنية فهو كان يعلم أنها تحبه وأنها تعاني جفاءه وجفاف معاملته.

حينما وصلوا الى تونس استقلوا الأتوبيس المجهز لينقلهم إلى السكن الخاص بهم.

وكانت من المصادفة أن شقه خالد أمام شقة أمنية في نفس الطابق.

مضت الأيام وخالد وأمنية جنبًا إلى جنب في العمل. لم يخفَ على خالد اهتمام أمنية الزائد له في بعض الأمور، كاهتمامها بمواعيد الاستيقاظ وجبات الطعام في العمل كالإفطار والغداء. أوراق العمل التي كانت تخفى على خالد أحيانًا بسبب شروده، وكانت أمنية تذكره بها.

وفي يوم وبعد إنهائهم العمل اقترحت أمنية على خالد أن يقضي معها باقي اليوم ليتجولا قليلًا ويكسرا الروتين اليومي. وافق خالد على مضض بعد أن أحس بمشاعر أمنية تجاهه، وأنه كان جافًا معها في كثير من الأوقات. ظلا يتجولان معًا حتى بلغ خالد بعض الإعياء الذي أدى إلى إغمائه في الشارع ونقل على أثره إلى المستشفى، وبالطبع كانت أمنية معه.

كان خالد في غيبوبة سكر، ولكنه لم يستطع مقاومتها هذه المرة.

ظلت أمنية بجانبه طوال الليل، تدعي له قليلًا وتقرأ له بعض الآيات القرآنية. فاضت من عينيها الدموع وأفلتت من لسانها ما كانت تخفيه عن

خالد من حب وهيام به. كان خالد في حاله من اللاوعي، يستفيق قليلًا بعينين زائغتين وعقل شارد للحظات حتى يذهب في حاله من السبات مرة أخرى في نوبة استيقاظه سمع بعض الكلمات من أمنية ولم يرد مقاطعتها أو حتى لفت انتباهها لاستيقاظه.

كانت تتكلم بعاطفة حقيقية ومشاعر صادقة.

سمع كلماتها في صدق وإيقان تامين حتى راح في غياهيب السبات مرة أخرى.

يومان على هذه الحالة أمنية بجانبه لا تذهب إلى أي مكان بعد أن بلغت الإدارة بالموقف وإصرارها على البقاء معه، وحينما استفاق خالد تمامًا اول ما وقعت عيناه عليه كانت أمنية ودموعها التي لم تجف طوال إغمائه. وأول ما قاله لها كان:

- تتجوزيني؟!

- إيه!!

تعجبت أمنية ولكنها لم تخفِ فرحتها التي كادت تقفز من عينيها.

- بقولك تتجوزيني.

- انت بتتكلم بجد؟!

- أه بتكلم بجد، انا سمعت كل حاجه، معرفش ازاي بس سمعت عياطك ودعواتك وزعيقك ليا على إهمالي ليكي، ها موافقه.

أحست أمنية ببعض الخجل لما سمع خالد ولكن وجهها قد أضُيء بحمرة وجنتيها ونظرها في الأرض .

– ها موافقه ولا ارجع تاني للغيبوبة عشان تفكري.

– لأ لأ غيبوبة إيه. اه موافقه طبعًا، بس.

– بس إيه؟

– انت متاكد من ده ولا صعبت عليك.

رمقها خالد بتعجب وسخريه معًا ولكنه أجابها بوضوح.

– بصي هو انا اللي ممكن اكون صعبان عليكي. أنا كل حاجة فيا صعبه.انتي الحاجة الوحيدة التي ممكن تديني أمل في الحياة من بعد ما خسرت كل حاجه. انا معنديش حاجه اخاف عليها ولا أخسرها بس خسران نفسي في الدنيا. مش مرتاح. كل اللي انتي قولتيه ملوش تفسير غير اني كنت حمار عشان مكنتش شايف اللي بتعمليه عشاني بس خلاص انا مبقتش حمار. موافقه.

لم تجبه أمنية ولكنها ارتمت بأحضانه وبكت، بكت على كلماته وبكت على كل ما فات من مشاعر لم يكن يدركها خالد وتمنت أنه كان يصاب بهذه الغيبوبة لحظه لقائهما.

في الأيام التالية حكى خالد لأمنية كل ما يخصه من حيث وفاة والديه وإيمان وسكره وإدمانه الخمر والحشيش. كل شيء سيئ أعلمها به. ولكنها وعدته انه ستكمل معه حتى يتعافى من كل هذا. الامراض والإدمان

والمشكلات النفسية، كل شيء ستصلحه بحبها له وبالجوانب الجيدة بداخله وهو لم يخف عنها أي شيء سيئ ليكون متصالحًا مع نفسه ومعها.

في الزفاف حضر بعض زملائهما في العمل، وأم أمنية وأبوها فيما اعتذر السويفي عن الحضور ولكنه أرسل لخالد باقه ورد وزجاجة شامبانيا وورقة مطوية كتب له بداخلها "العقدة اتفكت في تونس يا فقري."

ابتسم خالد إثر قراءته كلمات السويفي.

وقرر أن يبدأ حياة جديدة خالية بقدر الإمكان من كل الجوانب السيئة التي كان يعيش بزواياها، ليتجنب ذكرى الفقد والخذلان والألم ليعيش بعد كل هذه المعاناة حياة جديدة حتى ولو نصف حياة فلا بأس بها بعد كل معاناته التي عاشها وحيدًا.

***

على الهامش

ما الحياة إلا رحلة مدفوعة الأجر من آلامنا وأحلامنا الضائعة

سدًى وأوجاعنا الصامتة، ولكنك لا تملك حق إنهاء الرحلة فهذا

ليس في عقد الاتفاق!

بعد صراع كبير بين جسدي المنهك وعقلي النشط قررت أن اسرد اخر كلماتي في هذه الدنيا.

أنا الآن في مستشفى حكومي لا أعلم أين تقع ولا أريد أن أعلم.

ملقًى بإهمال على سرير ربما كان آخر مرقد للكثيرين قبل مواجهة رهم.

يد مُعلق بها الكثير من المحاليل والأخرى مكبلة في عارضة السرير المعدني الذي يغضبني صريره حينما أتحرك.

من بداية الحياة وأنا في شتات.

طفولة قد نسيت منها الكثير ولكني لم انسي بالطبع ما عانيته بها.

طفل منذ نعومة أظفاري وأنا مضطهد من قبل الجميع، ربما لشكلي الطفولي أكثر من اللازم أو أفكار لا تتناسب مع سني الصغيرة لقد صدقوا من قالوا إنه من المشكلة أن تعرف كثيرًا وأنا قد عرفت كثيرًا عن كل الأشياء التي مررت بها.

ولدت فقيرًا في حي افتقر لكل مباهج الدنيا ولم يأخذ منها سوى العفن والجهل والمرض والجوع.

كل يوم أذهب لمدرسة حكومية قالوا إن مر بها نوابغ من قبل وكانت تقع في قرية مجاورة وكنت بالطبع أذهب إليها مشيًا لا أعلم لأني لم أكن أملك المال لأستقل سيارة توصلني أو لأنني قد أقنعت نفسي أنه لا سيارات تمر في هذا الاتجاه باكرًا.

مؤدبًا، متفوقًا وضعيف. هذا بالضبط ما كان يصفني به أساتذتي وبعض زملائي.

لطالما أخُذ مني طعامي عنوة رغم محاولاتي البائسة في العراك مع أولئك المتشردين ولكن كل مرة لم يكن هناك حل. كلما ذهبت إلى أحد من مدرسيَّ في الصف كان يكتفي ببعض الكلمات لتطييب خاطري مع بعض الكلمات والسباب لأولئك الفتوات في المدرسة.

ظللت هكذا في مراحل تعليمي. أحاول أن أتحاشى العراك وأحتمي بالجدار الذي طالما أوصاني والدي السير بجانبه.

أذهب كل يوم من المدرسة للبيت وأنا أتضور جوعًا فيما كانت أمي تتعجب عن سر نهمي للطعام الذي تقدمه لي حين أعود وكأنها لا تعلم ما يحل بي في كثير من الأيام!

ما إن انتهيت من المرحلة الثانوية حتى فررتُ إلى العاصمة حيث تلك الحياة التي كنت أتمناها.

من قرى الريف إلى كلية التجارة بجامعة القاهرة، ومن حياة يابسة إلى سكن الطلاب الذي بدا لي كفندق بسبع نجوم. ظهر لي أن الحياة ربما تبتسم أخيرًا، وأن كل ما عشته كان ضمن سنيني العجاف وها قد حان وقت سنين السمان والمعيشة الرغدة. بحثت عن عمل وقد كان.

عملت في أحد المطاعم كمحاسب بحكم دراستي التي سأتخرج منها بعد أربع سنوات.

أنهيت العام الأول بتقدير جيد وفي ظل ظروف عملي كان هذا لأمر عظيم. ذهبت إلى مسقط رأسي لأطمئن على والدي وهناك قد علمت أن والدتي مريضة منذ فترة تجاوزت الشهرين، ولم يكن والدي يريد تعكير صفو حياتي بهذا الخبر المحزن.

جالست أمي لشهرين حيث كنت أذهب يوميًّا للعمل ثم أعود في المساء للاطمئنان على أمي وإعطائها جرعات العلاج. شهرين وحال أمي لا يزداد إلا سوءًا لا أعلم لماذا ترفض الذهاب للقاهرة لتلقي العلاج؟ لماذا تصر على خوفها من الخروج من الدار؟ وكيف يمكن أن تظن أنها ستموت إذا غادرت المكان؟

لم يفت الكثير لمعرفتي إجابات هذه الأسئلة فقد ماتت أمي. ماتت بعدما أكل الڤيروس كبدها. كيف لم أعلم أن هذا فيروس الكبد الوبائي منذ أن بدأت في التقيؤ دمًا. كيف سمحت بسذاجتي أن تموت أمام عيني ولم أستطع فعل شيء سوى إعطائها بعض المسكنات. لماذا لبيتُ أمرها هذه المرة

وأطعتها في عدم الخروج من منزلها للعلاج وأن أقتنع بجملتها أنه يجب أن تموت في بيتها كالأميرات ليس كالعامة في مراكز الصحة.

ماتت أمي ومات معها بعدها أملي وأحلامي في هذه الحياة. أصبحت الحياة بائسة وغير مجدة بالنسبة لي. كيف لم تظهر لي هذه الفوضى التي تدار بها الشؤون، وكيف لي أنني لم أعرف أنني لم أعش من طفولتي شيئًا.

الكثير من التفكير والمحاولات لاستجماع شتات نفسي.

عدت للجامعة من جديد ولكن ببعض النضج والتفتح. جال في خاطري ما لم أفهمه وأنا صغير وأن الرجل يظل طفلًا حتى تموت أمه فإذا ماتت شاب فجأة.

حاولت أن أنتظم في الصلاة والمواظبة علي حضور الدروس الدينية لبعض الجماعات الإسلامية التي بدا لي في البداية أن أغراضهم في الدين فقط!

كانوا يمدونني بكل شيء، الكتب الدراسية والدينية ودراسات الفقه وساهموا في إيجاد عمل لي غير ما أعمل به حيث اتضح لي أنه من غير المستحب العمل مع أي من أهل الكتاب طالما يوجد فرصة للعمل مع مسلم من ديني!

وبالرغم من معاملة الرجل المسيحي الذي كنت أعمل معه معاملة جيدة ولكنهم طلبوا مني العمل معهم ليمكنني أداء الصلاة في وقتها والمداومة على ذكر الله!

أطلقت لحيتي وكانت كثة وشعثاء بعض الشيء ولكنهم أبلغوني إنه ما دامت نية إطلاقها سنة موجودة بداخلي فأني سأثاب عليها إن شاء الله.

مضى العام الثاني لي في الكلية بنجاح وتقدير عام جيد جدًا. وما أن انتهت الدراسة حتى استأذنت من رئيس جماعتنا للسفر لقضاء بعض الوقت مع والدي والاطمئنان على صحته وبالطبع لم يمانع بل أعطاني حفنه من بعض النقود بعد الحاح شديد على حين رفضت في البدء بأدب، ولكنه قال لي: إن أسددهم من راتبي حينما أعود.

ذهبت لزيارة أبي الذي اشتقتُ إليه وحينما وجدني مقبلًا عليه لم يتعرف على في بادئ الأمر لا أعلم هل لإطلاقي لحيتي وجلبابي أم إن الزهايمر أصابه من بعد وفاة أمي!

مكثت معه أسبوع حدثته فيه عن أموري وما حدث عليها من تغيرات، ولكني فوجئت ببردة فعله حينما أخبرته أنني أصبحت فردًا من أفراد الجماعة.

لم يكن أبي متعلمًا أو مثقفًا ولكنه كان يسعي جاهدًا للسير على نهج صحيح الدين. كان يصلي كسائر الناس ولم يكن متشددًا قط ولا يعلم من آيات كتاب الله إلا قليلًا ولكني حينما أخبرته بما أنا عليه حاليًا لاحظت على وجهه بعض الانزعاج ولكنه حاول أن يخفيه قدر الإمكان وتحدث معي في بعض شؤون الدين الذي يعلم عنها قليلًا، وأن ديننا دين التسامح والعفو والرحمة والتراحم، وأننا أهل الدين يجب علينا الاعتناء بكل شيء من جوانب الدين، وأن نحرص على أن تؤدي فريضتنا داخل المسجد ولا

نفرض آراء وقواعد الدين على الجميع، وأن الناس ليسوا كبعضهم البعض، وأن كلًا منهم له عقل يدرك مداه وأفاقه جيدًا، ويجب علينا أن نكون وسطيين معتدلين لا نميل إلى الهوى ولا التطرف شيئًا.

لم أدرك ما قد رمى إليه أبي وهأنا بالفعل أؤدي فروض ديني وسننه وإني أصبحت أكثر التزامًا وتفتحًا عن ذي قبل.

عدت للقاهرة بعد أن اعتنيت بأبي وأخذت منه النصائح والكثير من المشاعر التي أفقدها في غيابه.

ما إن عدت حتى وجدت أن الحال في العاصمة اختلف كثيرًا وأنه يوجد ما يسميه البعض الانقلاب العسكري والبعض الآخر ثورة أو تصحيح مسار الثورة أي شيء مما ادعوا فقد كانت جماعتنا غاضبة منه وكانت تحشد كل قواها في كل المدن لمساندة رئيسنا الشرعي. وكان دور البعض منها حمايه المقرات وآخرين التظاهر في الميادين وتأمينها وبعض الأدوار لم أعلم عنها شيئًا!

كنت كالمنوم مغناطيسيًّا، افعل ما أومر به دون استفهام أو وجل ولا تذمر ولكنه سرعان ما تم القبض عليَّ أنا وآخرين من إخوتي في الله، وقد تم تعذيبنا بأبشع الطرق مع تلفيق بعض الاتهامات التي لم نكن نعرف عنها شيئًا. فأنا لم أكن أفقه شيئًا من أمور القانون ولم أكن أعلم أننا كنا نسعي للتخريب أو لدمار البلاد، ربما لو أعلمنا أحد هذا بطريقة ما كان قد حدث ما حدث ربما الأسوأ من اقتراف الخطأ هو عدم معرفتك ما هو الخطأ من الصواب، ربما وبعد حبس أكثر من سنتين احتياطيًّا على ذمه

التحقيقات وبعد أن بلغ من المرض مبلغًا عظيمًا، وأكل الحزن حواسي كلها، ولم يبق لي شيء سوى آخر هذه الأنفاس وهذه الأوراق المبعثرة من حولي، ربما لو كانوا أخبرونا ما هو الخطأ وما هو الصواب، وكيف هو الانتماء للوطن دون الشعارات والأهازيج الكاذبة والمنافقة، ربما كان كتب لي العيش أكرم من هذا الحال.

***

الشك

أسوأ شيء في هذه الحياة أن كل ما تفعله يعود إليك مرة أخرى

الساعة الرابعة عصرًا

موعد انتهاء عمله في وزارة التربية والتعليم حيث يعمل موجهًا للشئون الإدارية آنذاك.

استوقف تاكسي ليوصله لشقته في مصر الجديدة حيث يسكن وحيدًا في مسكن قد ورثه عن والديه وعاش به وحيدًا هو وأخوه الأصغر منه بعامين فقط والذي قد سبق أخاه للزواج بالرغم من أنه الأصغر منه، ولكنه قد لاحظ زحف العمر له حتى تخطى الثلاثين بأربعة أعوام، ولم يجد أي مانع من أخيه الأكبر في أن يسبقه في هذا الشأن الذي لا طالما حثه عليه وخصوصًا من بعد وفاة والديه واحدًا تلو الآخر. دخل المنزل في تمام الخامسة. وما إن دخل حتى أصابه الإحباط فجأة لوحشة المنزل دون شقيقه الأصغر منه والذي لم يمر على زواجه سوى أسابيع قليلة، وجد فيها الحياة ملولة وموحشة في الوحدة. صحيح أنه كان قد تعود سفر أخيه في مأموريات عمل وبياته بعيدا عن المنزل ليالي، ولكنه الآن بات مقتنعًا أن أخاه لن يقيم في المنزل مرة أخرى، وأنه حتى وإن أتى لن يأتِي البيت إلا زائرًا لساعات قليلة مع زوجته الجميلة.

لطالما أراد الاستقرار والزواج ووجود من تملأ حياته وتؤنس وحشة هذا البيت الذي طالما لم يفرغ من وجود فتيات الليل كل ليله حتى في وجود أخيه الأصغر منه الذي حاول كثيرًا أن يثني أخوه عن أفعاله الشنيعة والمنافية للدين لا سيما أن هذه الأفعال في نفس البيت الذي نشأت فيه معًا والذي كان والديه دائمًا حريصًا على أن يكون بيت طاهرًا لا يحوي شيئًا يغضب الله تعالى.

ولكنه كان يخشى فكرة الزواج كثيرًا ولَم لا وهو الذي فعل من الموبقات والفواحش الكثير ويخشى أن يرد له ما فعله طوال حياته وهو من أفسد قلوب الكثيرات وخرب بيوت الإناث الفاتنات المتزوجات اللائي كن يركعن تحت قدميه إذا شاء إحداهن دون حرج في طلبهم للنوم معه في بيته. ولم يكن يجد في إغواء أي امرأة سوى بضع دقائق مع بعض الكلمات الدلالية والوقحة في بعض الأحيان ولكنه كان في الحُسن آية تُفتن به كل من تراه هو صاحب الطول الفارع والمنكبين العريضين والعينين الزرقاوين كسحابة صافية والشعر الكستنائي الأسود فكانت كل من تراه تقع في عشقه دون محاولات منه، وكان كلما أراد أن يضع حل لما هو به من انفلات وانزواء في الشهوات كان يختار أي فاتنة من ذوات الحسب والنسب ومن ثم يضع لها بعض الاختبارات، ومن ثم تفشل بها بالطبع مع رجولته ووسامته الزائدتين ويتركها كالأخريات، وهنا كان يكمن هاجسه الكلي فكان كلما كان شخصًا سيئًا، يتوقع عقابًا أكبر ويخشى فكرة الزواج أكبر وأكبر، وكان يخشى أن يرزقه الله بامرأة مثل أولئك اللائي فسدن طواعية أمام وسامته ورجولته غير القابلة للرفض أو أن ينجب طفلة يدان بها على جميع أفعاله الشنعاء والمقيتة.

ولكنه أحسَّ بالذنب لأول مرة حينما تعرف إلي المرأة التي تزوج بها أخوه وهي لم تكن سوى واحدة من أولئك اللاتي اشتهاهن يومًا ولكنها استعصت لدرجه جعلته يتركها تفلت من تحت يديه رغم محاولات التودد الكثيرة التي كانت تكفي لهيام جماعة من إناث قد عرفهن من قبل!

وقد صدمه أخوه حينما أشار إليها في إحدى الحفلات مشيرًا لأخيه أن تلك من وقع عليها الاختيار لتكون أمًّا لأطفال سيدعونه بالعم!

حاول وقتها تفادي النظر إليها ومن ثم تحسين صورته أمامها كي لا تفضحه أمام شقيقه الأصغر وقد وعدته بنسيان ما حدث سابقًا على أمل أن يبتعد بأفعاله تلك عن أخيه.

وهكذا ظلت الحياة بين الانزواء في الرغبات والخوف من التقدم خطوة واحدة في سبيل الصواب، والزواج خوفًا من عقاب الله والتمثيل به على نهج: "كما تدين تُدان"

***

بائس ولكن

من يعرف المزيد تداهمه الشيخوخة مبكرًا

إيفان تورغنيف..كاتب روسي

عزمت أن أذهب إلى صديقي اليوم، فهذا هو اليوم العاشر الذي يتغيب فيه عن العمل دون إذن مسبق. ربما يكون قد أصابه مكروه ما! ويجب عليَّ الاطمئنان عليه بحكم عملنا معًا لفترة ليست بالقصيرة.

جلبت عنوانه من شئون العاملين.

أنهيت عملي واستقللت تاكسي لشبرا حيث يقطن عبد الله زميل عملي.

أتبعت العنوان تفصيلًا، وما إن وصلت أمام شقته وصفعت الباب لمرتين حتى سمعت صوت حركة بالداخل وتبين لي أنه سيفتح الباب.

فتح زميلي الباب ولكنه لم يكن كما عهدته!

فقد كانت لحيته مهملة ومشعشة، شعره منكوشًا وملابسه متسخة ورثّة للغاية.

دعاني للدخول بعد ما تفاجئ لحضوري وبدا أنه لا أحد يأتي ليزوره في هذه الشقة التي تبدو مهجورة لولا وجود صاحبها أمامي.

جلسنا في صالة البيت وبدت وكأنها جزء من كهف لا شيء بها سوى أربعة كراسي يبدو أنها جزء من طاقم صالون كان كاملًا ولم يعد! ومكتبة يبدو أنها تنتمي للقرن الماضي برُمتها.

أحضر صديقي لي الشاي وكوبًا من الماء.

ظل الصمت مُطبقًا للحظات وبدا عليه التملل من وجودي.

أفلت بعض الكلمات من لساني علها تكسر هذا الهدوء المريب.

– لماذا لا تأتي العمل يا عبد الله؟!

قلتها وكأن حالته لا تكفي لإجابة هذا السؤال.

– لا شيء أنا فقط متعب قليلًا.

– هذا واضح عليك للغاية أنا أقصد ما سبب تعبك؟ ماذا حل بك لكل هذا؟

– أه يا صديقي لو تستطيع أن تفهم ما بي لأرحتني كثيرًا، ولكن هذا صعب للغاية!

– حاول يا صديقي وأعدك أنني سأحاول جاهدًا أن أفهم ما بك.

– وأنا سأكلف نفسي عناء أن أشرح لك بقدر الإمكان...

إن شعورًا بالحزن والقلق والخوف يتملكني بشدة. السوداوية تملأ حياتي ولا أجد مخرجًا. كل يوم أصير فيه أكثر حدة وكآبة عن السابق.

كأن أحدًا وضع زجاج مُهشم في حلقي حتى لا أستطيع التفوه بما بي، أن شعورًا دفينًا بالحزن والأسى يغمرني.

يجعلني كائن رخو، بلا إرادة أو طاقه لفعل شيء.. إن الحياة عبارة عن مجموعة من المشاعر المبعثرة والمهملة بداخلي، كل يوم بشيء مختلف، وهذا الشيء يثير هذا الشعور.

وأوقات كثيرة أصبح بلا شعور، الفراغ يحاوطني بشدة، أشعر بالخواء حولي.

لا أجد أي شغف في الحصول على أي شيء.

إن قلبي مغمور في بقعة من الحزن المكتوم غير المبرر، أنا متشائم وسوداوي. أنا لا أجد أي هدف من هذه الحياة، فأنا هنا وحيد للغاية، لا أجد من أشاطره حزني أو سعادتي أو كآبتي أو أي شيء يحتاج لمشاركة، كيف يعيش البشر حياتهم هذه.

غير عابئين بالاحتباس الحراري مثلًا! أو انحدار مستوى الموسيقى والفن، اندثار الأخلاق تحت غلاف التطور والازدهار!

إن حياتي غير مجدية يا صديقي العزيز.

- هون عليك يا صديقي لا يوجد شيء يستدعي لكل هذا. اقترب من ربك عله يجيبك، هذه ليست نهاية العالم!

- ولو كانت، حينما ينتهي العالم. سأدون آخر خطيئة في صحيفتي بإشعال سيجارة ونفخ دخانها في الهواء. قد بلغت ذنوبي عنان السماء، ولم

أتقدم خطوة واحدة طيلة حياتي إلى طريق التوبة، أنا مذنب. أعترف بذلك. ربي يعلم بذلك أيضًا. لعل اعترافي يقلل من آلامي.

أعلم أن جهنم لن يستطع أحد تحمل عذابها ولكني أعتقد أنني سأكون من المعذبين فيها، ولو شاء الله لمررت بدون سابقة عذاب.

أخشى من أن أقتل صرصورًا وقحًا يتعدى على خصوصيتي ويجلس في معي في ظلام غرفتي الكئيبة، ولكن هذا الكائن ذو الشوارب لا يحترم عزلتي ويحاول جاهدًا أن يصل إليّ وأنا راقد علي سريري، أخشى من إيقاظ قطة نائمة في فناء بيتنا فأمر بجانبها وأنا أسعى جاهدًا ألا أزعجها بخطواتي، ولكنها لا تحترمني كما احترمتها فتفزع من شيء ما وتملأ الفناء نواحًا وصخبًا وضجرًا من وجودي، بعض الناس الآن يسيرون في الطرقات ليحكوا أنني شخص سيئ وفاسد وكئيب ومنطوٍ، ولست كما يتخيل الجميع أو يظن بي أنا كل هذا، من يخشى من كل الأشياء ويحاول تفاديها، من يراعي شعور الجميع ولا يلقي من الجميع سوى الإساءة والأسى والخزي والألم، أنا الذي يحترم خصوصية الجميع حتى ذلك العنكبوت الماكث في غرفتي منذ فترة طويلة ولم أقوَ على إزالة شباكه التي اتخذها موطنًا في موطني الكئيب. أنا من يعاني ولا أحد يهتم لعنائه، أنا الذي يرى أن الحياة ليست مناسبة له ولا حتى لأشباهه الأربعين.

– ولَم لا تتزوج يا يا صديقي؟ علّ كل هذا الحزن يذوب في الحياة مع زوجة طيبة.

- الزواج في مجتمعنا ما هو ألا مشروع اجتماعي أثبت فشله في مئات التجارب!

المرأة تريد الزواج لتحصل على لقب زوجه فقط، ثم أين أجد تلك التي تتحمل حزني وتعبي وهمي واكتئابي، أنا لا أريد الزواج بامرأة يكون كل همها المال أو المظهر الخارجي لعلاقتنا. أنا أبحث عن تلك المثقفة صاحبة الوعي والأفق المتفتحة، التي تهتم بجمال عقلها. وقلبها أكثر من جمال المظهر، المظهر يذوب مع السنين أما جمال الروح لا يفنى حتى إذا فارق الجسد الحياة.

أنهى كلماته وأشعل سيجارة.

- التدخين يدمر الصحة ويسبب الوفاة يا صديقي. لماذا تدخن؟

وما الضرر يا صديقي في أن التدخين يسبب الوفاة. وما الفائدة من تلك الحياة البائسة وسط القمامة والانحدار والجهل والمرض؟ أنا أدخن حينما أحزن وحينما أفرح. حينما أمرض وحينما أشعر بالوحدة. حينما يتملكني الغضب من أحدٍ كي لا أقتل أحدًا في ساعة غضب. أنا أدخن لأن التدخين رفيق جيد لا يخون شخصًا وحيدًا.

أنهى عبد الله كلماته وأنا كنت مصدومًا من بؤس قوله.

استأذنت منه بعدما تفوهت ببعض كلمات المواساة التي لا تفيد...

في هذه الليلة لم أستطع أن أنام.

ظللت ساهرًا أفكر في كل ما قاله صديقي، كيف يمكن لشخص عادي أن يحمل كل هذا الحزن بداخله وحده! كيف يحتمل هذه الحياة من الأساس، وما الذي يمكن أن يكون قد حدث له ليصل لهذا؟. في الصباح، حاولت جاهدًا أن أستيقظ لأذهب لعملي ولكني لم أستطع شيء ما بداخلي منعني من هذا، شعرت فجأة أن حتى عملي لا جدوى منه.

وفي منتصف النهار جاءني اتصال من العمل يومها ليبلغوني أن عبد الله قد تُوفي وأن جنازته ستُشيع صباح غدٍ.

صعقني الخبر وتذكرت آخر كلمات له. ربما أكون أنا آخر شخص قد تحدث معه. ربما أراد أن يخبرني أنه لا يحب تلك الحياة وأنه ربما رغم موته إلا أنه الآن سعيد.

في الصباح اجتمعت أنا وزملائي للذهاب للدفنه وتشيع الجثمان. قالوا لي إنه توفي إثر أزمة قلبية، عانى بسببها نحو أكثر من ساعتين، هذا ما قاله الطبيب الشرعي، وهذا ما علمته جهة عملنا وهذا ما قاله أهله عندما أبلغوا إدارتنا بذلك، أين كان أهله طوال هذا الوقت؟

توفي حينما لم يجد أحد يشعر بحالته ويساعده، بعد أن ترك لي الكثير من التساؤلات حول هذه الحياة، بعد معاناته في حياة لم يعانِ فيها الكثيرون مثله، لأنه من الصعب أن تتجسد كل هذه المعاناة في شخص واحد... علمت من أصدقاء مقربين لنا في الجنازة أنهم وجدوا في أجندة كانت موجودة بجانب سريره بها جملة واحدة مكررة لأكثر من مره "الحياة قاسية للغاية، أنا لا أستطيع تحمل كل هذا وحدي، أنا أتمنى الرحيل.

لارا

ومن الحب ما قتل

يغلق غرفته عليه، يعتصره الحزن والأسى والخزي مما قد حدث.

لم يكن الفراق ضمن احتمالاته في علاقة حبه الكبير. هكذا كان يصفه دائمًا.

فـــالحب يمكن أن يقاس ككل الأشياء فيوجد حب صغير يمكن أن نحبه لأصدقائنا وأقاربنا، يوجد الحب الوسطي وهو الذي يمكنه أن يشمل الأب والأم والإخوة!

أما الحب الكبير هو الذي نشعر فيه أننا في آخر طور من أطوار السعادة "يمكن أن تحب أي شخص حبًّا كبيرًا، ولكن عليك أن تتحمل عواقب هذا من حيث الخذلان والوحدة وألم الذكريات بعد فراقكم!

وحيدًا، كئيبًا، ومنسيًّا. هكذا رأى نفسه عندما نظر في مرآته. قرر أن يكتب لها رسالة علها تشعر به في كتاباته وبين السطور.

"حبيبتي"

الآن لن يصبح من حقي التعبير عن مشاعري، سأدعوها فترة حل خلافات تافهة ليس إلا. لم يكن البعُد من ضمن اختياراتنا ولكني سأريحك من المعاناة معي يا عزيزتي. أنا أحبك كثيرًا، أنا أعترف بذلك. وإن كنت

دونت اعترافي هذا مرات كثيرة على شفتيك. ولكن ليس خطأ مني تكرار قولي هذا. أنا أعشقك، وأعشق كل ما يخصك، لن أنسى مطربك المفضل، مواعيد نومك واستيقاظك. حتى أتفه التفاصيل محفورة في ذاكرتي، فقط لأنها تخصك أنتِ. أنتِ طفلتي الأولى التي اعتنيت بها في كل شيء، أنتِ أحببتِ ذلك. وأنا لم أُقصر فيه أيضًا. ولكن ماذا حدث؟! لماذا كل هذه المشاجرات التافهة، لماذا أصبحتِ تبغضين اهتمامي وتدليلي لكِ؟ هل أنا مبالغ في شعوري؟ هل أصبتكِ بالملل؟ هل أصبحت مكالماتي شيئًا مزعجًا؟ حدثيني في أي شيء أخطأت. فكل مشاعري واهتماماتي كانت وما زالت لكِ أنتِ، أنتِ فقط يا طفلتي. سأمتنع عن إزعاجك، سأتوقف عن إجهادك بمحادثتي، ربما أنا مخطئ في ظنوني؛ ربما أنتِ تمتلكين من الأحزان ما تخفيه عني لكي تظهري أمامي بكل هذا الجفاء والقوة، في كل ليلة من لياليَّ القادمة، سوف أنتظر مكالمتك أو رسالة منك مضمونها أنك اشتقت إليَّ، ستظلين دائمًا بخاطري، ستظلين كما أنتِ يا حبيبتي. ستظلين في أعماق قلبي المكان الذي خُلقتِ لتسكنيه. اعتني بنفسك، فأنا سأمتنع عن الاهتمام بأمورك قليلًا حتى تتحسن الأجواء، حتى تشتاقي إليَّ كما كنتِ دائمًا.

أحبك يا صغيرتي.

ضغط على زر الإرسال عبر تطبيق "واتس اب"

ثوانٍ قليلة حتى تبين له أن الرسالة قد وصلت بعد علامة √√ باللون الأزرق.

كان القلق يعتصره من ردة فعلها، لم يكن يعرف كيف ستكون ملامحها عندما ترى كلماته.

ظهرت أمامه لأكثر من مرة أنها تكتب وتحذف ردها.

سحق عددًا من السجائر وهو ينظر لشاشة هاتفه، لا يعلم كم مر من الوقت عليه هكذا، ولكنه فوجئ بأنها لم ترسل له شيئًا في محاولة واضحة للتجاهل والغضب الشديد. أغلق هاتفه في أسى وحزن بالغين وكان قد أصابه من اليأس شيئًا عظيمًا في عدم رجوعها إليه مرة أخرى...

أخذ قرصين من المنوم في محاولة منه للهرب من التفكير بها.

في اليوم التالي ذهب طارق إلى جامعته بالجيزة حيث كليته، فهو في كلية التجارة في السنة الرابعة وكانت امتحاناته جارية... أنهى امتحانه ثم انتظر لارا ليحادثها عله يستجدي رجوعها إليه مرة أخرى

خرجت لارا من الامتحان وأول ما وقع عليه بصرها هو وجه طارق. أشاحت بوجهها عنه بمجرد النظر إليه. أحس طارق بإحباط كبير من ردة فعل لارا عليه، ولكنه سرعان ما تدارك الأمر وفسَّره بأن لارا ربما تعاني ضغط الامتحانات، أو بعض المشكلات العائلية التي يعرف عنها الكثير ، فالحياة مليئة بالصراعات.

كان هذا آخر امتحان في السنة الدراسية، وكان طارق قد قرر السفر الأسبوع المقبل للاطمئنان على والده لأن أهله يقيمون في بلد آخر.

خرج طارق من الجامعة إلى عمله حيث يعمل محاسب "كاشير" بـــسوبر ماركت كبير في مدينة نصر.

سار اليوم معه برتابة شديدة باستثناء نظره لهاتفه كل بضع دقائق للتأكد من أنه لم تفوته مكالمة من لارا.

أنهى عمله ثم ذهب لبيته بعد عناء يومًا وجد فيه أنه وحيد جدًّا بدونها.

أحضر كوبًا من القهوة مع وجبة طعام سريعة التحضير.

على مدار اليوم يمكن أن يبدو المرء منشغلًا في أمور عدة ولكنك مع بعض التركيز ستجد أن عقله لا يفكر سوى بشيء واحد. كان هذا حال طارق بعد انفصاله عن لارا. لارا التي كان دائمًا يقول عنها إنها نصفه الآخر، الشخص الذي تشعر أنه أنت، كل الأفعال والأقوال يمكن أن تُفهم من نظرة واحدة من عينيها. كانت تشبه حتى في الحزن، فدائمًا كان حزنها غير مبرر مثله، لأوقات كثيرة يظلا صامتين يكفيهم التحديق إلى الفراغ، سواء النظر في السحب نهارًا أو حتى عد النجوم ليلًا..

أه لو تعلمين كم أفتقدك يا حبيبتي.

قالها طارق بآسي بالغ.

قرر أن يرسل لها رسالة أخرى للتعبير عن ذلك الاشتياق الجمِّ.

– حبيبتي، كيف حالك؟ أخبريني: ماذا بك الآن؟ لن أملَّ من أدق التفاصيل، فأنا اعتدت أحاديثك المطولة، أعتقد أني أشتاق إلى احتضانك. فأنا ما زلت مصممًا أنني أعشقك يا حبيبتي، أنتِ طفلتي الأولى، استمعت

إلى مطربك المفضل كما تحبين الاستماع إليه، حدثت نفسي كما أحب أن تحدثيني. يا حبيبتي وأنا بعيد عنك مُصاب بالوحدة، أنتِ كنتِ تشغلين فراغ يومي. أنتِ مللتِ من هذا، أنا أعي هذا جيدًا، ولا حرج عليكِ في البوح بهذا الشعور، كتابتي لكي الآن ليس الغرض منها استعطافك أو طلب رجوعك إلى حياتي، سترجعين إليّ.

أنا واثق. حبك لي ومشاعرك تجاهي غير قابلة للنقاش، أنا واثقبها حد السيف، أنتِ سترجعين إليّ عندما تتوهين في الحياة، عندما لا تجدين من يغازلك مثلي، عندما لا تجدين من يهتم بأمورك مثلما أنا كنت أفعل، ستعودين عندما تشعرين بسخف الحياة بدوني. غروري أمر ليس فيه نقاش مثل عشقك لي، فأنا أيضًا من تركت كل نساء الأرض من أجلك، كنت أشعر بالسعادة كلما رأيت غيرتك، كنت أتأكد أنك فتاة قلبي كل مرة تزداد مشاجرتك معي. اليوم أنا فقط أكتب لأطمئن على أحوالك، صحتك، حالتك النفسية وباقي تفاصيلك التي أعشقها.

أتمنى أن تكوني بخير.

اشتقت إليك.

ضغط على زر الإرسال وثوان قليلة وقد أرسلت الرسالة.

كما حدث أمس، حدث اليوم.

ولكنها هذه المرة لم تحاول أن تكتب شيئًا مما أثار غضبه كثيرًا.

حاول أن يجد مبررًا لما يحدث ولكنه عجز. الشيء الوحيد السيئ في الوحدة هو إحساسك باحتياج أحدهم في وقت ما !

أغلق طارق الهاتف في أسًى وقرر النوم لعل غدًا يحمل له ما يريد

***

في الصباح لم يستطع طارق الذهاب لعمله، فقد كان يشعر بالإرهاق والحزن الدفين بدون سبب، علها آلام الفقد والخذلان.

جلس طارق في البيت طوال اليوم، يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية وبعض الأغاني لمطربين كانت لارا تحب أن تستمع إليهم، كان يشعر بطيفها بمجرد أن تمر صورها أمام عينه أو حتى في مخيلته. كان مغرمًا حد الجنون، رغم أنه الفتى المدلل لدى عائلته التي تعيش في إحدى الدول العربية منذ سنين طويلة. كان طارق دائمًا يصول ويجول بالمال كيفما يشاء. كانت تخيلاته كلها تقبع في أن المال هو حل كل شيء، ولكنه وبين ليلة وضحاها أدركه التغيير بينما كان في الصف الثالث من الجامعة.

حاول أن يصبح شخصًا مهندمًا منظمًا، يهتم بجامعته ويعتمد على نفسه في عمل لا قد يحتاج لماله لما يدره عليه أبيه كل شهر. ولكنه قرر أن يتحمل جزء من المسئولية ولتجربة شعور الروتين الذي يكرهه الآخرون!

بعد فترة من هذا التغير أتته لارا. حواء التي خلقت لآدم، آدم فقط هو الذي خلقت له حواء ولارا لم تخلق إلا لطارق. هذا كان شعوره عندما

رأى لارا مع إحدى زميلاته في الجامعة. فقد كانت تتلقى تعليمها بالخارج ولكنها عادت لمصر مع أهلها بعد قرار من والدها بالاستقرار في مصر.

ربما يتشابهان في الظروف الأسرية ولكنهما اختلفا في بعض الطِّباع واتفقا في جمال خلقهما. فقد كان الاثنان آية في الجمال!

فقد كان طارق عريض المنكبين، شعره ناعم، عينان خضراوان ترى فيهما جمال الكون كله، أنفه صغير.

كان وجهه بسيط الملامح يزينه ذقن وشارب لونهما بني مائل للاصفرار مثل لون شعره.

كان كيوسف في الأرض.

أما لارا فمن الصعب شرح شكلها ولكني سأحاول في محاولة بائسة مني.

" النساء في العادة يُقارنَّ بعضهنَّ ببعض لكي يعلمن من الأجمل فيهن"، لارا لم تكن كسائر النساء فهذا الشعر الأسود الطويل المنسدل حتى منتصف الظهر الذي كان الهواء ينتشي عندما يداعبه، تلك الملامح الرقيقة كملامح الأطفال كانت وكأنها طفلة، ولكن في عمر الاثنين والعشرين، ضحكاتها كانت تسكر كل من رآها حتى أولئك الذين لا تسكر عقولهم!

طولها الفارع ومشيتها الواثقة، وطرقعات كعبها كانت تثير كل النفوس من حولها، فالبنات تشتعلن غيرةً والرجال تثار غرائزهم وأنا لا أجد لومًا عليهم في ذلك.

حاول طارق التحدث مع لارا في بادئ الأمر ولكنه صعق حينما صدته، ولم تعطه أي فرصة.

تحدث مع زميلته وصديقتها علها تخفف من وطأة الموقف قليلًا وهذا ما حدث.

اعتذر طارق لسوء الفهم الذي حدث خاصه بعد أن اتضح أن لارا اعتقدت أنه من أولئك السذج الذين يذهبون ليحادثوا أي امرأة لجمالها أو لأشياء أخرى.

سارت الأمور على ما يرام وفي كل يوم أصبحت علاقة طارق ولارا تزداد قوة وصداقة وحب ومشاعر مشتعلة تحت ساتر الصداقة!

عندما انتهوا من امتحانات الصف الثالث قرر طارق أن يعترف للارا بحبه لها. ذلك الحب الذي نما في فترة خمسة شهور، بدا لطارق بأنه حب حقيقي، وليس غرضه شيئًا، سوى النهاية السعيدة، بينما بدا للارا أنه تسرع في الحكم على الأمور رغم عدم نجاحها في إخفاء كل مشاعرها تجاه طارق.

فقد كانت ذات أخلاق رفيعة، ورغم محاولات الكثير بتشويه سمعتها لفشلهم في الحصول عليه إلا أنها ظلت الجميلة التي لم يستطع الوحش تملكها.

اتفقا على أن تسير بينهما الأمور على نحو الصداقة حتى يتأكدا من حقيقة مشاعرهما. شعر طارق بالحنق لهذا القرار ولكنه رضخ في النهاية

خشية أن يفقدها للأبد، صارت الأمور على هذا النحو طوال فترة الإجازة، ولكنه ومع بداية العام الدراسي الجديد توفيت أم لارا.

تلك الفاجعة التي هزت كيان كليهما.

كانت هذه الفترة عصيبة جدًا على لارا. فقد كانت متعلقة بأمِّها للغاية وكانت صديقتها وأختها وكل ما لديها ولعل هذا ما أثرَّ في شخصيتها كثيرًا بعد رحيلها.

طوال هذه الفترة لم يترك طارق لارا يومًا واحدًا، فقد كان تقريبًا ملازمًا لها طوال الوقت فهو الذي انهي لها أوراق مراسم الدفن واستخراج الجثة من المستشفى التي كانت ترقد بها خاصه أن والدها قعيد وقد أصابه الشلل في أثناء عمله بالخارج، وهو السبب الذي استدعى عودهم لمصر.

وهي وحيدة ولم تكن تربطها صلة قرابة قوية بأي أحد من أقاربها فكان طارق هو الذي لبى كل الواجبات على أكمل وجه عله ينال رضا عشيقته.

مرت هذه الفترة وتغيرت فيها لارا كثيرًا فأصبحت عصبية وسريعة الغضب، متقلبة المزاج. وحده طارق من أصر أن يكمل طريقه معها رغم فترات اختفائها عنه في بعض الأيام معللة الحزن والرغبة في الانطواء.. كانت لحظات اختفائها تسبب غضب طارق وتبدل حاله كثيرًا بسببها فقد أصبح شاردًا معظم الوقت، كئيبًا وغير عابئ بما يحدث حوله، لا يفكر سوى بها وكأنها أصبحت مرضه الذي لا شفاء منه!

أوضحت له لارا أنها تحبه، وأنها ازدادت تعلقًا به بعد وقوفه بجانبها وأنه صاحب الفضل بعد الله في تجاوز محنتها ولكنها تريد منه الانتظار دون كلل حتى يتخذان الخطوة المناسبة في الارتباط بشكل رسمي أو حتى الزواج مباشرة.

كان طارق يرضخ لهذه القرارات بشكل غريب، لم يكن ضعفًا في شخصيته أو شيء آخر سوى أنه كان يسعى دائمًا لإرضائها. "فالعشق هو أن تغمض عينيك الاثنتين وتسير خلف معشوقك دون كلل أو ملل، دون ضيق أو أي شيء آخر. العشق هو أن تتذكر معشوقك في لحظات الوحدة فتهيم بطيفه هيامًا دون أي شك بوجوده بجانبك."

كانت الأمور تسير على نحو جيد حتى قبل فترة الامتحانات بقليل حيث مرض والد طارق ولكن والدته منعته من السفر حتى الانتهاء من أداء امتحاناته.

كثرت الخلافات بينهما في الفترة الأخيرة فقد كان طارق عصبيًا للغاية، لا يفارق سجائره، نحل جسده وبدا وكأن أصابه مرض ما!

وبالطبع كانت لارا في حاله سيئة إن لم تكن أسوأ من حالته فهي حزينة على والدها من ناحية، ومن الناحية الأخرى حزينة على طارق وما تؤول إليه علاقتهما.

فقررت أن ينفصلا، لفترة لا يحدد مداها حتى يتعافى كلٌّ منهما داخليًّا، وأن ينهيا امتحاناتهما بقدر كافٍ رمن التركيز. ولكن طارقًا

اعترض هذه المرة على قرار لارا، فمهما يكن، هو لم يكن يريد أن تسير الأمور على هذا النهج. ربما اضطرابات أو خلافات سطحية بعض الشيء، ولكنه لم يرغب في الابتعاد عنها لحظة واحدة، لم تنجح محاولاته معها هذه المرة رغم بسالته، ولكنها حركت شيئًا بداخلها، ولكنها أصرَّت على إعادة النظر في علاقتهما مرة أخرى، خصوصًا أن ما كانت به ربما يكون عابرًا لوهلة من الزمن، أما طارق فما آلت به عصبيته وتوتره أصبح طبعًا مستمرًا.

أمضى طارق اليوم كاملًا ببيته يدخن السجائر ويشرب القهوة كوبًا تلو الآخر، يتصفح حسابه على الفيس بوك في ملل شديد ومحاولة بائسة للانشغال بشيء سواها!

يحدق إلى هاتفه في دقيقة تقريبًا ليرى هل حن قلبها واشتاقت أم لا.

في المساء حدثته لارا هاتفيًّا في مكالمة قلبت كيان طارق كاملًا، فقد أخبرته أنها لا تريد استكمال علاقتهما بشكل نهائي، وأن كلًّا منهما يجب أن يرضخ لهذا القرار بعد تفكير عميق من ناحيتها. تفاجأ طارق كثيرًا، ولكنه لم يغضب ولم يثر كعادته، امتص القرار ببساطة وقد تمم عليه دون أي محاولة لاسترجاع لارا مرة أخرى، وقد أحست لارا بارتياح شديد إزاء ردة فعله هذه.

أنهى طارق المكالمة وظل صامتا وجامدًا لفترة من الوقت أحس فيها أن روحه قد سُحبت منه وأن هذه المكالمة قد تكون خيالًا، ولم تكن، وأن لارا ربما تمزح أو ربما هناك شخص آخر في حياتها!

فزع طارق من هذا الخاطر وظل ساهرًا، ممددًا على السرير بعينين مفتوحتين ويد لم تفرغ من السجائر الواحدة تلو الأخرى.

في السادسة صباحًا كان ما يزال متيقظًا. سمع رنين هاتفه فأسرع إليه كالمجنون علها لارا قد تراجعت عن قرارها ولكنه وجد رقم أمه على الشاشة.

كانت مدة المكالمة دقيقة واحدة فقط، قالت فيها أمه أن يستقل أول طائرة للذهاب إليها فقط توفي والده. كانت هذه المكالمة هي القشة التي كسرت ظهر البعير بالنسبة لطارق فكل هذه الأحداث غير محتملة وظل يبكي كثيرًا..

ذهب طارق إلى المطار وسافر على أول طائرة لأمه.

أنهى طارق إجراءات المستشفى وإجراءات الدفن.

كانت أمه في حال ليست أقل سوءًا منه ولكنها رغم ذلك قررت البقاء لفترة وامتنعت عن السفر في جسارة وقوة حقيقيتين، لم يجادلها طارق في هذا القرار ولكنه قرر أن يعود لمصر في اليوم التالي مباشرة بعد دفنه لأبيه من أجل حبيبته!

عاد طارق إلى مصر وفي خلال الأسبوع توافد عليه عدد من زملائه في الجامعة ليساندوه ويعزونه في وفاة والده.

كان الحزن والجرح في أعماق طارق عظيمين، ففي يومين فقط فَقَدَ لارا ووالده.

فوجئ طارق بـــلارا في بيته، لم يكن متوقعًا أن تأتي له بعد ما قالته ولكنها أتته.

دعاها للدخول وقد كان.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تأتي فيها لارا لبيت طارق، ولكنها كانت الأولى بعد قرار انفصالها عنه!

قدم طارق للارا قهوة كما تحب أن تشرب دائمًا.

بدأت لارا الحديث بعزائها له وحزنها الشديد على وفاة والده وعلى حاله الذي بدا سيئًا للغاية.

ظل طارق ينظر للارا نظرة متفرسة، يتأمل كل ما بها ويشبع عينه منها.

أنهت لارا كلماتها وهمت بالرحيل ولكنه طلب من أن تجلس وتسمعه قليلًا.

حاول طارق أن يطلب منها أن تعود علاقتهما كما السابق ولكنها قالت إنها لن تستطيع، وحينما سألها عن السبب صمتت قليلًا وحينما قرأ طارق ما في عينها بادرها بالسبب:

– في حد تاني في حياتك؟!

لم تجب لارا، ولكنها اكتفت بالنظر في الأرض في محاولة لتأكيد كلامه.

سألها مرة أخرى:

– من إمتا؟

صمتت قليلًا ثم أجابت:

- من أربع شهور.

صُعق طارق عندما أكدت كلامه وظنونه التي حاول مئات المرات في تكذيبها.

- مين؟؟

- حد جارنا!

ازاد غضب طارق أكثر كلما أجابته وبدت في عينه خائنة له!

هم طارق بها وأطبق على رقبتها وامسك بها بضراوة.

حاولت أن تقاوم ولكنه ظل ممسكًا برقبتها ويصرخ فيها يا خاينة يا خاينة.

صمت كل شيء بعد ثوان!

صراخ لارا وتأوهاتها، كل شيء سكت وسكن.

عم الصمت للحظات وطارق واقفًا فاتحًا عينه على اتساعهما دون أن يرمش له جفن.

ظل الحال هكذا لدقائق مرت كالدهر وبعدها ظل طارق يضحك ويبكي معًا وبعدها مزق ملابس لارا واغتصبها!

نعم، اغتصبها وهي ميتة مرتين ثم جلس بجانب جثتها يبكي. بكي كالطفل حينما يكسر لعبته. بكي واخذ يحدث جثتها وهي ملقاة على

الأرض عارية، أخذ يمشط شعرها ويحادثها ثم يبكي مجددًا حتى توقف تمامًا عن البكاء.

وقف طارق في منتصف الصالة عاريًا وجثة لارا ملقاة على الأرض ثم اتصل بالشرطة ليبلغها بما فعله كاملًا بلارا ثم أعطاهم عنوانه وأغلق الهاتف.

بعد أن أغلق الهاتف جلس يحدث لارا، أو جثتها إذا صح التعبير.

ظل يمرر يديه على شعرها وقسمات وجهها البريئة ثم ألقى بنفسه من شرفة شقته!

حضرت الشرطة عقب ذلك وتيقنوا من بيانات طارق كاملًا وجاءهم كما أعطاهم في الهاتف وبعد تشريح جثة لارا وجدوا أن بها هتكًا في الرحم إثر الاغتصاب الذي تعرضت له بعد وفاتها.

وبعد التحريات وشهادة أصدقاء طارق ولارا، وجدوا أن لارا وطارقًا لم يتوفيا إلا بسبب حبهما لبعض فلولا حبه لها لما قتله ولولا حزنه على ما فعل لما انتحر.

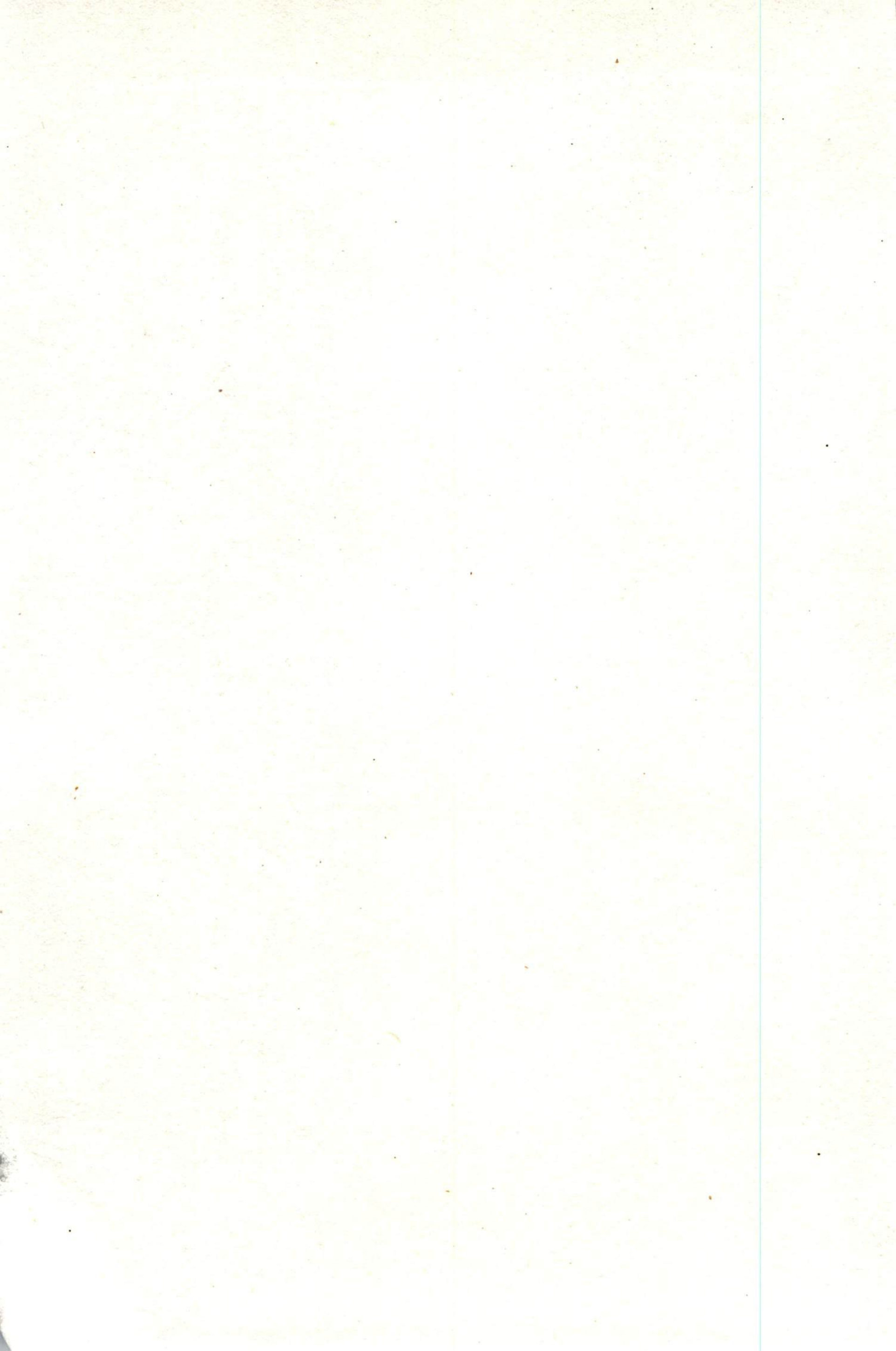
***

من الذاكرة

"التدخين كالوعي كلاهما قد يدمران الصحة ونهايتهم الوفاه

عليلاً."





معايا في الموضوع ده تقلب بخناقه وفي عز حملها فيك كانت تغضب ع الأكل وساعات كتير كان بيغمى عليها وأنا مفيش في دماغي وأقول شوية وتتعود.

أمك كانت ست بنت أصول متدخلش حد بينا حتى لو من اهلها. انا عمري ما حبيت حد زي أمك يا أحمد.

أنا عرفت أمك من وهي في الثانوية وكنت يوميها انا شغال في ورشة أبويا ولما شاف عيني متعلقة بيها في الرايحة والجاية قعد معايا وقالي لزماك ولا شغل عيال؟

رديت أنا بقلب جامد لزماني يابا رد وقالي يعني كلام رجاله، قولتله كلام رجاله وكات اول مره ابويا يقول كلمه وينفذ. بعدها بأسبوع روحنا خدنا من جدك ابو امك كلمه شرف أن بنته تكون ليا بس بعد ما يشاوروها وتخلص دراسة.

تاني يوم جدك قال لأبويا البت موافقه وانا موافق وبعد الشهادة يبقي نكتب الكتاب والدخله سوا. جت الشهادة خلصت من هنا وجدك ابو امك اتكل علي الله من هنا ومات! بس احنا كنا واخدين كلمه من راجل البيت الله يرحمه وستك وعمام أمك مأخروش عنا حاجه، ٤٠ يوم حداد تمو واتجوزت أمك. معرفش اتجوزتها ليه. يمكن عشان جمالها، ولا عيونها اللي مليانين طيبة وحنية ولا شعرها اللي كان سايح علي ضهرها. شوف ياض انت عندك كام سنه وانا فضلت متجوز أمك قد ايه بس انا حقيقي لحد دلوقتي معرفش ايه اللي خلاني اتجوزتها.

سعل الرجل سعالًا قويًا كادت تخرج معه عيناه من مجريهما "عل نبش الغبار عن الذكريات يؤدي إلى بعض الاضطرابات الداخلية"!

– المهم عشان مطولش عليك لأحسن انا خلاص حاسس أن روحي قربت تطلع

– متقطعش قلبي يابابا متقولش كده.

هنا وقد انفجرت عينا الابن من البكاء على والده وكلامته التي تلقي على مسامعه بسخريه والده المعهودة ولكن أباه ربت على كتفه بحنان وشرع في استكمال ما قد بدأه سلفًا.

– أول ما اتجوزت أمك بعدها بشهرين عرفت إنها حامل فيك في شهر وبعدها أبويا راح ميت وحصل أبو أمك في نفس التربة وحياتك أصلهم كانوا متفقين يكونوا جنب بعض في القبر زي ماهم بقوا نسايب وجنب بعض في الدنيا!

بعد ما أبويا مات ورثت الورشة عنه انا وعمتك سعاد وهي كات متجوزة ومستورة واكمنها الكبيرة متاخرتش عني واتنزلتلي عن حقها في الورشة.

أنا مش أحترم نفسي وأشتغل على لقمة عيشي بالحلال وأقبل لأ دانا بقيت اخد اجرة شغلي من الناس افيون وحشيش.

في الأول أنا كنت بستغرب من الناس ازاي تعرض حاجه زي كده بدل حقي بس تقريبًا كده الناس كلها كانت بتشرب.. وبتشرب اللي مبيشربش من غير ما ياخد باله!

في مرة قاعدين ع السطح انا وجيرانا وعمك سعيد وهاني ومحمود أيام ما كانوا لسه اشقيا. المهم بقولهم بصوا النهارده الزبون اداني ايه ولسه بوريهم لقيتهم كانوا هياكلوا ايدي ع الريحه اللي من اللي في ايدي، عرفت بعدها أن اسمه حشيش وانه مكنش موجود في السوق وهما كانوا هيموتوا عليه!

خدوها مني ورصوها على الجوزة وحلفوا اني لازم أشرب معاهم مادام الحاجه حاجتي وانا اللي موجب معاهم يبقي لازم اشرب.

الشهادة لله يابني انا عمري ما كنت حطيت الحاجات دي بوقي ولا كنت اعرفها بس اخرة صحبه السوء وحشه.

رمقه ابنه باستنكار لما يُلقى على مسامعه من ذكريات يندى لها جبين الشرف ولكنه لم يرغب في إبداء شيء علّ أباه قد تاب بعد قدومه على ظهر الدنيا. حاول أن يمنعه عن الحديث لصحته أولًا ثم لأن ما يُلقى ليس جيدًا لهذا الحد وليس بشيء يُحكى من الأساس! ولكن والده أصر على استكمال ما بدا حتى النهاية.

فوجئ في شروده بلكزة كوع من والده ايقظته من سرحانه الذي لم يدم سوى لثوان ولكن أباه كان منتبهًا.

- انت مصدوم فيا صح؟!

قالها الأب بنبرة خجول من نظر ابنه إليه ولكن ابنه حاول تدارك الموقف سريعًا.

– لأ يا بابا كل واحد ايه جانب سيئ بس انا عمري ما شوفت منك حاجه غلط، بس واضح ان الوحش كله كان مات من قبل ما أكبر!

قال الجملة الأخيرة في انزعاج ولكنها خرجت من فيه على كل حال.

عمومًا يا بني اللي فاضل مش كتير انا هحكي وأنت حر، الكلام ده ملوش تأييد غيري أنا حتى عمتك متعرفش كل حاجه واللي الله يرحمها معرفتش تستحمل مجيك الدنيا وماتت وسبتك ليا، استحمل مني آخر كلمتين في الدنيا، دانا استحملتك ٢٦ سنة ياض.

بُهت وجه أحمد من قوة لهجه أبيه وكأنه في عز شبابه وعافيته، بهت لأنه لوهله شعر بالخزي من تاريخ أبيه رغم ما هو به الآن من عيشة رغدة بسبب أبيه ايضًا.

" الماضي والحاضر والمستقبل جميعها متشابهة، فقط تاريخ الحدوث هو المتغير الوحيد بها".

نظر أحمد لوالده نظرة رضا وأسف عما بدر في إشارة منه لاستكمال الحديث مرة أخرى.

– المهم أنا خدت على قاعدة الرجالة كل يوم ع السطح ولو معييش حاجة بتعزم ومش بدفع لحد فجأه ما لقيت نفسي في يوم وليله مدمن مخدرات، الكمية اللي كنا بنتعطاها في الليلة كات تكفينا عشر تيام بس تقول إيه بقا الافترا وحش. كنا لازم نشرب لحد ما نطوح ومنعرفش نروح بيوتنا ونبقي شغالين كل يوم تايهين وإيدنا متفارقش الشاي

والسجاير عشان نعرف نفوق. أمك كانت كل يوم تتكلم معايا بالذوق شويه وبالزعيق والصوت العالي شويتين! فضل الحال على كده لحد ولادتك. كنت لسه راجع من السهرة مع الرجالة، مش شايف قدامي متر، يا دوبك انا دخلت من هنا ولاقيت أمك بتصوت من هنا، انا قولت تلقاها عايزة نتخانق زي عاداتنا ولسه بقولها اخرسي قالتلي انا بولد يا عبده!

دخلت طسيت وشي بشويه ميه عشان أعرف أفوق ورروحت شايلها ونازل. وانا ع السلم قابلت جارنا عم سمير قالي تعالي أوصلكم بالعربية. مكدبناش خبر ربع ساعه وكنا في المستشفى وصوت أمك جايب آخر بلاد المسلمين.

عقبال ما جهزوا أوضة العمليات كان سمير دفع الفلوس وانا قاعد مش دريان باللي حواليا. والممرضين رايحين جايين مش عارفين فيا ايه لحد ما عم سمير اتصرف وجابلي برشامه من ممرض وقالي دي هتفوق!

شويه ولقيت الدكتور خارج من الأوضة بيسأل على جوز الست اللي بتولد.

قومت وقولته خير يا دكتور.

قالي لازم تمضي على إقرار إخلاء مسئوليته لأن العيلين محشورين جوا!

أنا سمعت عيلين دي ومبقتش فاهم حاجه ياض يا أحمد دماغي فضلت تودي وتجيب والدكتور يقولي امضي. فضلت أزعق وأهلل عشان افهم

لحد ما جاني المدير والدكتور فضل يقوله كلام مفهمتش منه حاجه.وفي الاخر مدير المستشفى قالي أن في خطر علي حياتكم وحياة امكم وهما هيحاولوا يتصرفوا والامر في ايد ربنا وان التأخير خطر على حياتكم كلكم.

الدنيا فضلت تلف بيا بعد ما مضيت ع الزفت الإقرار وأزيد من الساعتين الدكتور جوا لحد ما خرج وشو في الارض وقالي أن في جنين واحد بس اللي عاش من العملية وإن أمك والجنين التاني ماتوا.

انا مش فاكر ازاي قدرت استلم جثثهم من المستشفى ولا حتى ازاي دفنتهم وعملتلهم عزا!

حسيت بقيمة أمك أوي لما بقيت لوحدي، لما كنت بشوف عياطك مكنتش ببقا عارف اخدك في حضني ولا إموتك زي ما أمك ماتت بسببك!

عمتك سعاد هي اللي ربتك وعاشتلنا بعد موت جوزها وياما قالتلي اتجوز عشان ع الاقل الاقكي اللي تربيك، بس اللي امك فاتته فيا يابني محدش كان يقدر يعوضه.

بعد موت أمك انا بطلت كل حاجة، المخدرات والخمرة، حتى السجاير. كنت بخاف على نفسي لا اموت ولا اتحبس ومتلاقيش اللي يصرف عليك وياكلك.

لكن الحمد لله انا معنديش حاجه اخاف عليها لو مت دلوقت. انت كبرت وبقيت راجل خد بالك من صحتك يا حبيبي.

خرج أحمد من حاله صمته المُطبق بعد انتهاء أبيه من حديثه.

– انا مش هعرف اعيش بعدك، متموتش.

– محدش بيختار معاد اجله يابني كلنا ضيوف علي ضهر الدنيا.

– انت ليه مغرفتنيش الكلام ده طول السنين اللي فاتت دي؟!

– عشان مكنتش عايزك تعيش بذنب موت امك وانت عيل ولا تكرهني عشان كنت ومدمن. كنت عايز نعيش سوا صحاب ياض، كنت عايزك تعوضني عن وحدتي وكنت عايز ابقي صاحبك مش ابوك الصايع الحشاش!

إوعى تكون كرهتني ياولا.

قالها الأب بسخرية مملوءة بالحزن والأسى.

– أنا عمري ما كان ليا صحاب غيرك انت عيشتلي أم وأب، أنا عمري ما أقدر أكرهك.

– كلنا بنغلط بس حتى الغلط له وقت وينتهي وساعتها لازم نتحاسب على أخطاءنا مهما كانت عبيطة وساذجة.

– أنا بحبك أوي يا بابا.

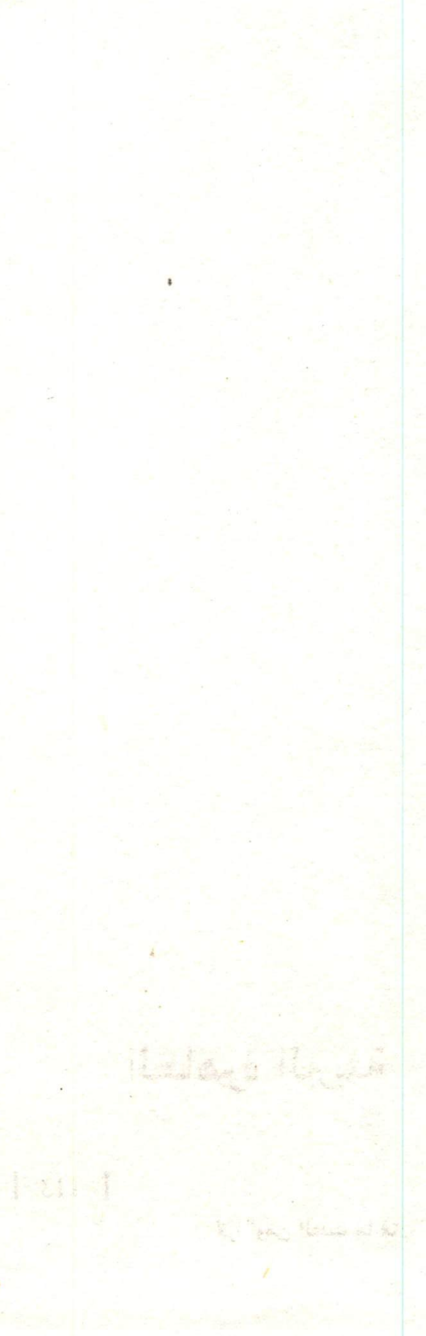
قالها أحمد وارتمى في حضن أبيه يبكي وينتحب حتى جاءته صافرة جهاز ضمن الأجهزة الموصلة بجانب أبيه. ثوان مرت كالدهر عليه وهو منكفئ علي صدر أبيه يتحسس نبضه ولكن سرعان ما أتاه الطبيب ليقطع شكه باليقين ويخبره أن أباه قد رحل.

رحل بعد ما ترك لابنه ذكريات وكلمات جعلته يحبه أكثر مما كان. ولعل هذه الذكريات كانت سببًا قويًا لتربطه به أكثر.

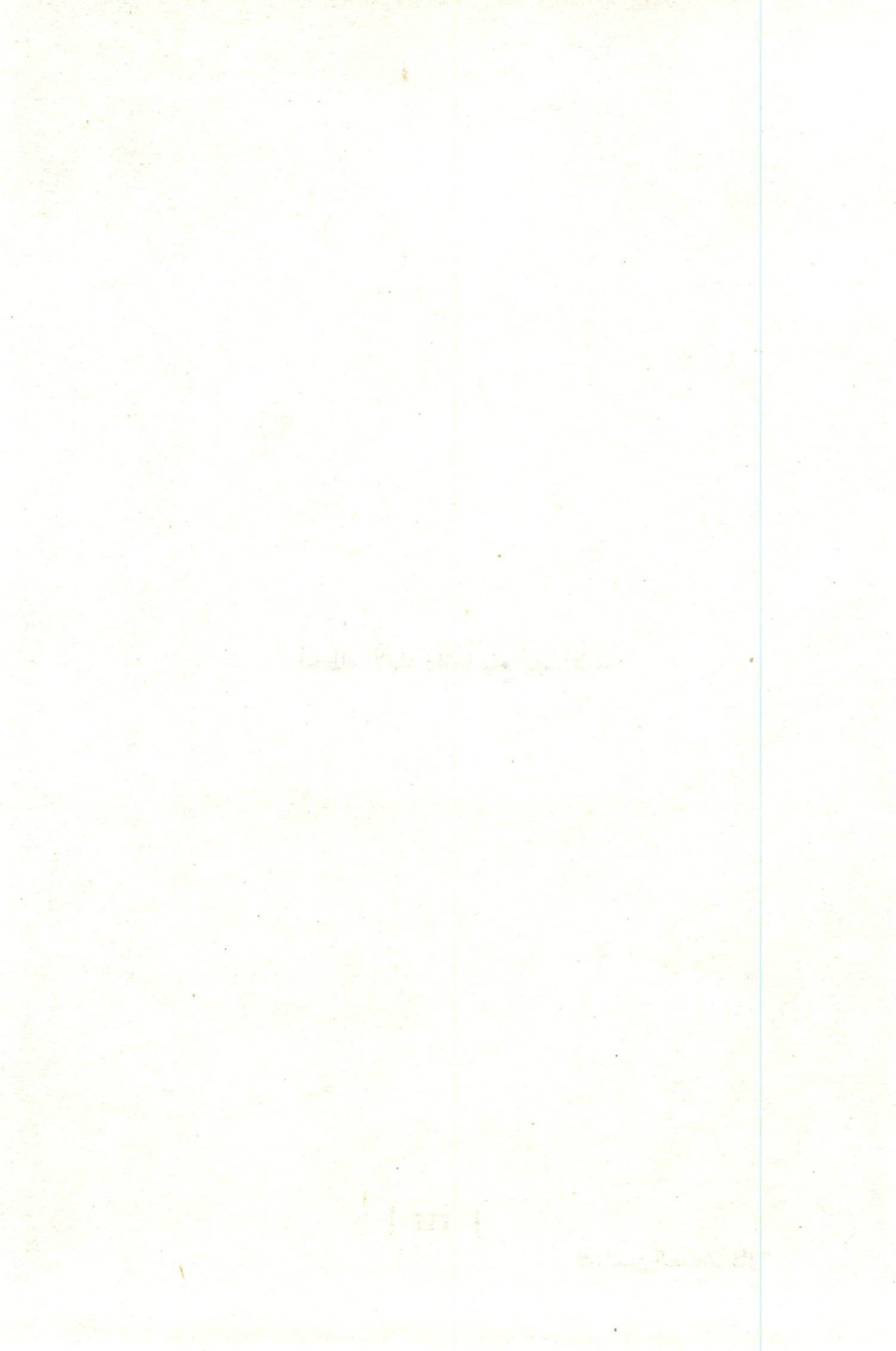
فبعض الكلمات رغم شفاهيتها ولكنها مواثيق أبدية لتربط بعض العلاقات للأبد.

***

العاهرة البريئة



أخطاء الآباء دائمًا يقع بها الأبناء



يجلس الان في الغرفة المجاورة طبيب نفسي سيتم التحقيق معه في قضية ما لم اقرأ أوراقها

العرق يتصبب من جسده كاملًا، يبدو عليه الاضطراب والقلق.

يدخل عليه المحقق بخطي ثابته وجسد عريض المنكبين ووجه يبدو عليه الإرهاق والتعب.

يلقي بأوراق على المكتب ويخلع ساعة يده علّها تخفف من وزنه قليلًا ثم يبدأ الحديث.

- دكتور مصطفى، أهلًا بيك

- أهلًا بحضرتك يا فندم.

- استأذن سيادتك بس بشويه بيانات عنك زي هو مثبت في أوراق تحقيق الشخصيه..

- اسمي مصطفى محمد عبد الوهاب.. السن تسعة وثلاثون عامًا.

بشتغل معالج نفسي، عيادتي في شارع طلعت حرب بوسط المدينة، أسكن في ثكنات المعادي، متزوج ولدي طفلان.

ألقى كلماته وبدا عليه أنه هدأ من رهبه الموقف قليلًا.

ألقى المحقق نظرة خاطفة على أوراق القضية وقد تبين أنها قضية انتحار فتاة، ولكن الأمر فيه شبهة جنائية قليلًا.

– دكتور مصطفى ما علاقتك بالمجني عليها؟

سؤال مباشر في بادئ الأمر عله يوفر على المحقق بعض المجهود.

– المجني عليه جتلي عيادتي أكثر من مرة وكانت بتعاني من الاكتئاب وبعض الاضطرابات النفسية.

أجابه ليست كافية لترضي شغف المحقق.

– من فضلك أنا عايز معلومات كافية من غير لف ودوران ومن غير أسئلة كتير عشان اقدر انهي تحقيقي معاك بطريقه لطيفة من غير ما ألجأ لأساليب تانية!

كان تهديد المحقق واضحًا للطبيب النفسي وبما أنه يستطيع أن يقرأ لغة جسده فقد تأكد أن هذا التهديد ربما يتحول لحقيقة ما!

– أنا عايز أفهم انا موجود هنا ليه؟

– المجني عليها وجدت ميته في شقتها وكان من آخر الأرقام اللي اتصلت بيها كان رقمك، واضح كده حضرتك؟!.

- أيوه فعلًا هي اتصلت بيا عشان تحدد معاد الجلسة الجاية وانا مسمعتش التليفون وبعدها نسيت اتصل بيها.

بدأ الطبيب يتحدث بأريحية وسلاسة شديدة.

- هما لقوها ميتة في شقتها وقاطعه شريانها والموضوع باين إنه مش مجرد انتحار! بعد إذنك انا عايز شويه تفاصيل عن حاله المجني عليها؟

- بس دي أسرار حضرتك وانا مقدرش أقولها، دي أمانة.

- دي حاله اشتباه في قتل يا دكتور والمريضة بتاعتك ماتت، يعني أي حاجة هتتقال مش هتفرق في حاجة معاها بس هتفرق معانا عشان نعرف ماتت إزاي.

أنا سهل عليا قوي اقفل القضيه دي دلوقت حالًا، أنا عندي مجني عليها ومشتبه فيه وأحولك بقا للنيابة هما يشوفوا حكايتك بس أنا عايز أشوف شغلي صح عشان فعلًا أطلعك من هنا.

علاقتك كانت إيه بالقتيلة؟

"بدت العصبي على المحقق واضحة وربما أنه على حق فيما سرده بكل التفاصيل، وأنه لا بد من تبرير موقف الطبيب في هذا الشأن".

- طب حضرتك كل الأوراق والبيانات بتاعت المريضة، أقصد المجني عليها يعني موجودة عندي في العيادة، أنا ممكن أجيبهم بكره لحضرتك عشان تطلع عليهم.

- وليه بكره؟! إحنا نبعت مع حضرتك حد من رجالتنا وتجيبهم وتيجي نكمل السهرة عندي!

قالها المحقق بتشفٍّ:

- مفيش مشكلة سعادتك.

" استدعى المحقق عسكري من النوباتجية الليلية ليذهب مع الطبيب لعيادته"

ساعتين من الزمن استغرقهما الطبيب والعسكري للذهاب إلى العيادة وإحضار المستندات، وكان فيهم المحقق قد حرق من السجائر ما يكفي عشرة أشخاص وشرب ما يكفي من القهوة لإيقاظه ثلاث ليال كاملة.

دخل الطبيب غرفه التحقيقات مرة أخرى ومعه أوراق وشرائط تسجيل للمجني عليها.

وما أن استلقى على الكرسي المقابل للمكتب حتى طلب منه المحقق بتشغيل أول شريط تسجيل.

وبدأ في تشغيل أول شريط تسجيل.

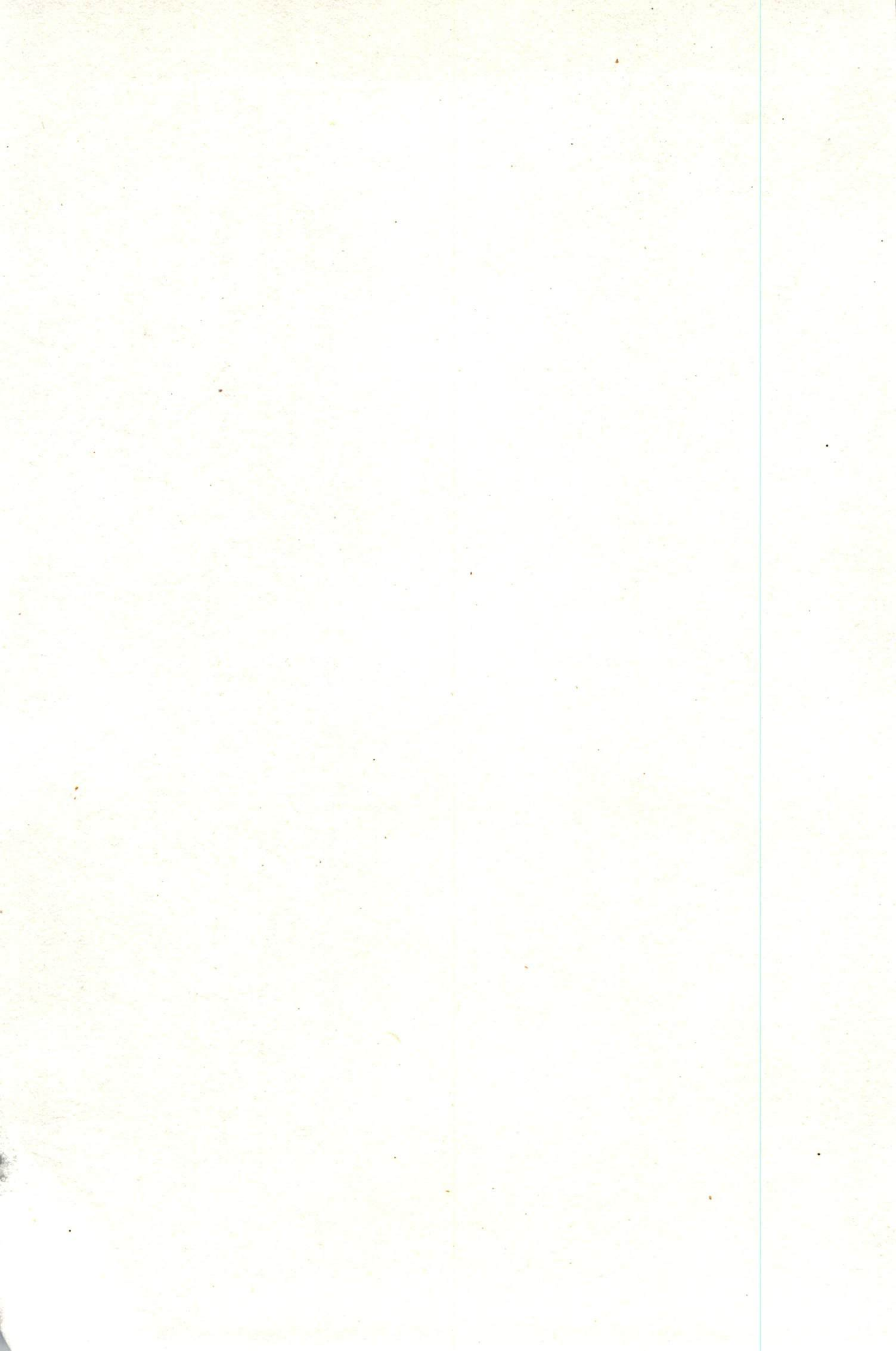
- اسم حضرتك ؟

- ريهام.

- السن؟

- 27 سنة.





- متقاطعنيش وانا بتكلم انا هنا عشان انت تسمع بس.

قالتها بحدة ألزمت الطبيب الصمت بعدها.

- طب ما تروحي لوحدك يا ماما.

- لأ مينفعش أسيبك لوحدك هتيجي معايا وبعدين خالتك عندها بنت في سنك يعني ممكن تتعرفي عليها وتبقوا صحاب!

لم يستغرق ارتدائي لملابسي كثيرًا أما أمي فكانت مستعدة للذهاب من قبل استيقاظي.

نصف ساعة كانت كافية للذهاب من منزلنا إلى منزل من تتدعي أمي أنها خالتي.

مبنى شاهق عله أكثر من 15 طابق، استقللنا الأسانسير الطابق الـ 11 شقه رقم 22 بالطبع أخذنا هذه المعلومات من مكتب الأمن الموجود بالطابق الأرضي.

ضغطت أمي على الجرس ثم ثواني قليلة وفتحت لنا خادمه تبدو وأنها أجنبية، فلبينية أو ما شابه ذلك!

أرشدتنا إلى غرفة واسعة ربما تكون أوسع من شقتنا بقليل ثم جلسنا قليلًا، ربما دقائق معدودة حتى دخلت علينا سيدة لم أراها من قبل.

استقبلتنا بحفاوة بالغة مع كثير من القبلات والأحضان.

بدأت أمي أطراف الحديث بسؤالها عن زوجها وابنتها الوحيدة مثلي.

لم يستغرق الأمر طويلًا حتى دخلت علينا فتاة تبدو في نفس سني وهيئتي تقريبًا.

شعرت بارتياح جم عندما وجدت أن أحدًا ما ربما يشاركني أي شيء بدلًا من وحدتي المقيتة التي أحيا بها، فأنا وحيدة لا أخ لي وأخت ولا صديقة دراسة ولا حتى أتحدث لأحد الجيران.

طلبت أمي من ابنة خالتي التي علمت أن أسمها وفاء أن نجلس معًا بغرفتها لكي نتحدث علنا نصبح أصدقاء، لم تعترض وفاء وربما كانت تنظر تلك هذه الكلمات مثلي تمام فطلبت منها أمها أن نجلس بغرفتها ولا نصدر ضجيجًا.

أخذتني وفاء بيدها وبدا أنها مُرحبة بوجودي للغاية.

دخلت وفاء إلى الغرفة وبصبحتها ريهام ثم أغلقت الباب عليهم.

اندهشت ريهام من فسح الغرفة وبراحها فبدت لها أنها أكبر من غرفتها بمرتين تقريبًا!

وجدت بها الكثير من العرائس وجهاز لاب توب ومشغل موسيقى mp3 ودولاب كبير يبدو أنه يحتوي بداخله على كثير من الملابس.

رحبت وفاء بوجود ريهام كثيرًا فدعتها للجلوس على السرير بدلًا من الكراسي الموجودة في وسط الغرفة.

فبدأت ريهام باجتذاب أطراف الحديث عن وحدتها ومللها من العيش في حياة ليس لها بها أي أصدقاء ولا حتى جيران تلعب معهم وأن أمها

شديدة الحرص عليها والقلق وأنها سعيدة جدًا بوجودها مع وفاء اليوم، وبدا على وفاء السرور كثيرًا وهي تستمع لريهام بإنصات وانتباه شديدين.

بدأت وفاء أيضًا بسرد بعض ما بصدرها من ضيق واضطراب من عدم وجود إخوة لها ولا أصدقاء وأنها برغم ما تعيش به من ترف وثراء بأنها تفتقد من تتشارك معه اهتماماتها بالموسيقى والأفلام والكثير من الاهتمامات الأخرى، وأنها تعاني الكبت من فرط وحدتها!

مضت ساعتان تبادلت فيهما وفاء وريهام الحديث وأرقام الهواتف وكانت الأمهات يتبادلن الشكوى من الحياة والحديث عن مشاغل هذه الدنيا ومشكلاتها.

ساعتان ونادت الأم ابنتها لتأتي لها بصحبة ريهام وأنه حان وقت الذهاب بعد وعد من والدة ريهام أن تسمح لأبنتها لزيارة وفاء مرات أخرى فيما لم تبدِ الأم أي اعتراض.

ذهبت ريهام وأمُّها بعد الكثير من الأحاديث والارتياح إزاء تلك الزيارة مع وعد من امها بتكرارها مرة أخرى.

مضى أسبوع او أكثر ثم وجدت ريهام رقم وفاء علي هاتفها.

– ألو.

– إزيك يا ريهام عامله إيه؟

– أنا كويسة انتي إزيك.

- انا الحمد لله كويسة، مش هتيجوا عندنا تاني بقا؟

- ماما مش راضية، قولتلها كذا مرة بس هي بتقولي بعد امتحاناتي عشان مضيعش وقت!

- انتي عايزة تيجي؟

- اه طبعًا.

- طب خلاص انا هتصرف، سلام.

- سلام!

أغلقت ريهام الخط في تعجب من إنهاء وفاء المكالمة سريعًا

دقائق معدودة حتى دخلت أم ريهام عليها الغرفة.

- وراكي حاجة؟

- لا أبدًا أنا خلصت مذاكرة من بدري.

- طب تعرفي تروحي لبيت خالتك لوحدك؟

- اه اعرف. هو في حاجة ولا ايه؟

- لا أبدًا خالتك كلمتني عشان اروح لها ولما قولتلها مش فاضيه قالتلي طب ابعتي ريهام تقعد مع وفاء شويه اهم يسلوا بعضيهم!

البسي ورروحيلها.

استغربت في الأول بس فرحت انها وافقت اني اروح لوحدي.

انتهى شريط التسجيل عند هذه الكلمات مما دعا الطبيب لفتح المسجل وقلب الشريط على الوجه الآخر.

- أكمل؟!

- أه اتفضلي.

- بس يا سيدي روحتلها بس لقتيتها لوحدها ولما سألتها عن أمها قالتلي بتعمل شوبنج مع صاحبها!

والخدامة بتجيب طلبات وهترجع بعد ساعة.

دخلنا أوضتها برضو وفضلنا نتكلم شويه بس بعدها لقيتها بتقولي تحبي تاخدي شاور!

أنا قولتلها فين يعني؟

قالتلي في حمام أوضتي في البانيو بتاعي.

ساعتها أنا كنت مخدرة مش عارفه ده صح ولا لأ. هي قالتلي احنا بنات زي بعض يعني وعادي!

دخلنا الحمام سوا وهي بدأت تقلع هدومها عادي ولما لقتني واقفه مكسوفة لقيتها بتقلعني هدومي واحدة واحدة.

بعدها ملت البانيو على آخره وحطت فيه شاور جل وقعدنا فيه سوا!

بقيت أنا قاعده قصادها وهي بتغسلي جسمي بالشاور وبعدها لقيت إيديها بتروح في أماكن حساسة!

اتنفضت من مكاني وقومت بس لقيت انها فضلت مكانها كأنها معملتش حاجه.

- إيه مالك في ايه؟!

- مالي! انتي مخدتيش بالك عملتي ايه؟

- في ايه يا بنتي، هو أن كلمتك. اقعدي اقعدي.

أنا فضلت مذهولة كده شويه وبعدها قعدت تاني.

مشت إيدها علي جسمي كله بس انا سبتها خالص ! كنت حاسة اني مبسوطة وهي بتعمل كده.

هي قالتلي إن ده عادي وان البنات كلها بتعمل كده مع بعض وان مفيش اي ضرر يعني.

قومت بعدها جسمي بيترعش جامد وبيتنفض معرفش حتى ايه السبب.

لقيتها مرة واحدة راحت بيساني من شفايفي!

ونشفت جسمي كله وبعدها خرجنا قعدنا في أوضتها.

- مالك قلقانة كدة ليه، متخافيش ده في الاول بس، انتي معملتيش ده قبل كده؟!

- لأ طبعًا. مكنتش اعرف بصراحه كنت بخاف

- ودلوقتي؟ اتبسطتي صح؟

- بصراحه اه، بس انا خايفة ماما تعرف حاجة.

- تعرف ايه يا بنتي. وهي هتعرف منين اصلًا!

كانت كلماتها مقنعه لحد كبير، أو بدا لي ذلك. أو ربما هذا تأثير النشوة والإحساس بالرعشة الجنسية بعد البلوغ.

ذهبت بعد أن هدأت أوصالي قليلًا وقدمت لي عصيرًا.

تكرر هذا الأمر عدة مرات. كلما ذهبت إليها أصبح هذا الأمر جميلًا أكثر ويجعلني سعيدة، وصلت لمرحله أدمنت فيها وفاء.

أصبحت علاقتنا قوية جدًّا نخرج سويا وتشتري لي بعض الهدايا وأحيانًا تعطيني نقودًا كنت أعلم أنني لن أستطيع ردها، ولكنها لم تمانع قط!

اتفقنا قبل فتره الامتحانات على أن تمتنع من اللقاءات حتى أستطيع التفرغ لدروسي في المرحلة الثانوية عسى أن أحرز مجموعًا.

وقد كان أنهيت الامتحانات وبعدها أصبحنا لا نفترق، أصبحنا نتسوق ونجلس معًا تقريبًا طوال اليوم.

هنا وقد أتى صوت الطبيب في شريط التسجيل المرة الأولى تقريبًا!

- طب ومحدش عندك في البيت لاحظ التغيرات دي كلها!

- حد، هههه حد مين يعني؟ انا وحيده وابويا مات وانا في رابعة ابتدائي وأمي موظفة ويا دوب كانت بتغطي مصاريف البيت والإيجار والميه والنور. وحتى لو، أنا أمي طول مانا مش بطلب منها فلوس مكنتش بتتكلم معايا في حاجة.

- طب اتفضلي كملي كلامك.

- بقيت بشرب سجاير، اتعلمنا شربها سوا، وابتدت تعلمني إزاي اتكلم مع شباب وازاي مختارش أي شاب كدة وخلاص لازم يكون باين انه غني عشان ماخدهوش أصرف عليه!

لما النتيجة ظهرت جبت 75% ده طبعًا كان إنجاز في ظل إن أمي فضلت تندب حظها فيا وإني مهملة ويا خسارة المصاريف والكلام ده.

أول حاجه عملتها كلمت وفاء وساعتها قالتلي أن هي جامعتها أصلًا في القاهرة بس هي مش بتروح غير على الامتحانات وان ليهم شقة كانت امها وخداها عشان أيام الامتحانات تبقي تقعد فيها ممكن نقعد سوا ف القاهرة.

قلت لأمي الاقتراح ده وهي صوتت من هنا وتقولي أنا مش عارفة البت دي عملتلك ايه عشان تتشعبطي فيها كده!

وبعد محاولات من ام وفاء اللي عرفت انها مش خالتي ولا حاجه وانها كانت جارتنا زمان قبل ما تسافر هي وجوزها الكويت. وافقت امي اني اسافر اقعد في القاهرة وابقا ازورها كل شهر مره.

انتهى الوجه الآخر من الشريط وظل المحقق يحدق إلى الطبيب قليلًا ثم بدأ كلامه.

- طب وبعدين، في شرايط تاني؟!

– ايوه فندم في شريطين كمان ودي بعض الأوراق اللي في شرح وتحليل نفسي لحاله ريهام.

ألقى الضابط نظرة بتفحص علي الأوراق التي تقول إن ريهام كانت تعاني اكتئابًا حادًّا واضطرابات نفسية كالأرق والامتناع عن الطعام وبعض المشكلات الأخرى.

– شغل الشريط التاني.

– حاضر

بدأ الطبيب بتشغيل الشريط التاني.

– تقريبًا احنا بقالنا ساعتين كده تحبي تكملي ولا كفاية كده النهارده.

– ساعتين! لأ كفايه أوي كده انا زهقت. ممكن اجي تاني إمتا؟!

– في الوقت اللي تحبيه لو عايزة، هي المفروض الجلسة كل أسبوع بس لو تحبي تيجي في وقت تقدري تتصلي بيا وتحددي المعاد اللي يناسبك.

أعطاها الطبيب رقم الهاتف ثم انصرفت. ثوان صامتة حتى انتهى الوجه الاول من الشريط.

– إيه ده؟ بس كده؟

قالها المحقق بعصبية.

– ايوة حضرتك ما هي الجلسة الأولى كده خلصت.

– طب اقلب الشريط ده خلينا نشوف فيه ايه.

– حاضر.

قلب الطبيب الشريط على وجهه الآخر وبدآ بالاستماع معًا

– إيه أبدأ؟

– اه اتفضلي.

– هو أنا آخر حاجه حكيتها كانت إيه؟!

– كانت نتيجة الثانوية العامة ونزولك القاهرة.

– اه تمام .

قالتها وأشعلت سيجارة واستلقت على نصف الكنبة أو "الشيزلونج"

– بس يا سيدي نزلنا القاهرة وقدمت ورق جامعتي وبدأت الدراسة.

وفاء كانت في جامعة خاصة فكنت بروح معاها تقريبًا اكتر ما بروح جامعتي، كانت أمها بتبعتلها فلوس وكانت بتديني منها بعد ما رفضت اني أنزل أشتغل!

عدت سنة أولى وطلعت بمادتين بس قولت لأمي اني نجحت صافي. رجعنا إسكندرية تاني وفضلنا هناك الاربع شهور بتوع الإجازة.

ورجعنا تاني للسهر والهلس والعلاقات وكل حاجة وحشة اتعلمتها واتعلمناها سوا!

– كنتي لسه محافظة على عذريتك؟

رمقته ريهام باحتقار ولكنها أجابت:

– اه، ولسه على فكرة. أصل وفاء قالتلي طول مانا سليمة مش مهم أي حاجة تاني وانا كده سليمه مفياش عيب يعني.

خلصت تانيه وتالته ووفاء لسه في سنه تالته اصلها كانت بتاخد السنه في سنتين!

بس لما خلصت امتحانات في تالته كانت ايه امتحاناقا مبدأتش قعدت أذاكرلها ولمت الدنيا شويه لحد ما عدت السنة معايا.

في يوم كنت نائمه انا ووفاء لقيتها بتقولي:

– انا عايزة أبطل.

– تبطلي ايه؟!!

– كل حاجه، عايزة نبطل اللي احنا فيه ده. انتي عاجبك القرف ده؟

كان صدرها يعلو ويهبط في اضطراب حقيقي وكانت أنفاسها متلاحقة بشكل كبير.

– طب اهدي، اهدي يا وفاء.

– مش ههدا، انا عايزه اتوب، انا قرفت وتعبت من نفسي، مش قادره استحمل اللي انا فيه.

قالتها وأجهشت في البكاء.

احتضنتها ريهام وظلت تربت على كتفها.

شعرت ناحيتها بإحساس الشفقة الممزوج بالكره والحنق. ربما من الأساس لو لم تكن وفاء هكذا لما أصبحت ريهام على وتيرتها!

هدأت وفاء قليلًا وأصبحت ساكنة، جامدة كالحجر. شاردة معظم الأوقات، عازفة عن تناول الطعام وأحيانًا النوم أيضًا!

في يوم صحيت متأخر ملقتهاش جنبي. دورت عليها لقيتها في الحمام وقافله عليها من جوا ولما فضلت اخبط مفتحتش ومسمعتش صوقا. جبت مفتاح الحمام ولقيتها سايحة في دمها وقاطعه شرايين إيديها.

لبست هدومي ولبستها الروب فوق هدومها ونزلت خدت تاكسي من قصاد البيت.

روحت بيها والدكتور قال إني لحقتها في آخر لحظة وإنها نزفت كتير جدًّا بس هما عوضوها بأكياس دم من عندهم .

فضلت يومين في المستشفى وبعدها خرجت كويسة بعد ما ادوها شويه ادويه كده.

حاولنا بعدها نبطل اي حاجة من اللي بنعملها ومعرفناش،حتى السجاير معرفناش نبطلها!

خلصت أنا وهي سنة رابعة. انا جبت جيد وهي جابت مقبول.

أمها ماتت بعدها، أبوها جه من الكويت يوم واحد دفنها وخد العزا واداها فلوس وراح مسافر تاني.

قعدت مع أمي شويه وبعدها رجعت القاهرة لوحدي. وفاء قالت انها عايزة تفضل في شقه امها وكانت رافضة تيجي معايا.

***

صوت الشريط الثاني وهو يغلق.

أخرج المحقق الشريط من المسجل ورمق الطبيب باحتقار.

- يا عم فيدنا الله لا يسيئك. النهار قرب يطلع وانا مفهمتش حاجه من الكلام ده.

نبرة المحقق كانت عصبية مائله للإرهاق والتعب.

- حضرتك طلبت الورق والشرايط وانا جبتهم أنا أقدر أعمل ايه تاني.

- بقولك ايه انا مش ناقص انا عفاريت الدنيا كلها بتنطط في وشي. الشريط التالت ده فيه حاجه مفيده؟

- هو مفهوش كلام كتير وفيه اخر حاله كانت وصلتلها المجني عليها.

- اتفضل شغله، لما نشوف اخرتها.

أشعل المحقق سيجارة وأخذ منها عدت أنفاس متلاحقة.

قام الطبيب بتشغيل الشريط الأخير في شرائط المجني عليها.

- عامله ايه النهارده؟

....

- بتاخدي العلاج؟

- لأ

- ليه؟

....

- طب انتي بتيجي ليه لما مش عايزه تاخدي العلاج.

- أظن أنا قولتلك انا باجي عشان أحكي، أنا مش لاقيه حد أتكلم معاه، انا قرفانه من نفسي.

أجهشت في البكاء بهيستريا بعد هذه الكلمات. بدا صوتها محشرجًا وضعيفًا للغاية.

طب اهدي. ممكن تكملي كلامك لما تحسي انك قادرة تتكلمي.

دقائق من الصمت سُمع فيهم طقطقات ولاعة لعدة مرات!

- وفاء فضلت في إسكندرية بعد موت امها وانا فضلت عايشه في القاهرة في الشقة بتاعتها. اشتغلت في الشركة اللي انا فيها دي لانهم كانوا عايزين ناس شكلهم حلو يبيعوا الهوا في ازايز، مروحتش إسكندرية غير مرتين بعدها مرة لأمي عشان اتصلت وقالتلي إنها تعبانة ومرة عشان اشوف وفاء.

- وقابلتيها، أقصد يعني قابلتي وفاء؟

- اه قابلتها، كان واضح انها اتحسنت كتير، صحتها بقت احسن وكمان بطلت حاجات كتير اوي من اللي كنا بنعملها أو اللي أنا لسه بعملها يعني!

- وبعدين؟!

- فضلت تنصح فيا حبه نصايح كتير، وانا مكنتش مستوعبه أن اللي بتقول الكلام ده وفاء! بس مفيش حد بيفضل على حاله.

قولتلها أني هفضل في شقة القاهرة وهي معترضتش وبعدها مروحتش تاني.

- المرة دي كانت إمتا؟

- من شهر تقريبًا!

- طب وانتي مفكرتيش تتوبي؟!

- أتوب؟! أتوب عن إيه ولا إيه ولا أتوب لمين أصلًا!

أنا آخر واحدة ممكن تتقيل منها توبة، وبعدين انت بتلوم عليا ضعفي. طب ما تلوم علي أمي اللي سابتني ابعد عنها لمجرد إنها هترتاح من مصاريفي ولا لوم علي وفاء اللي دخلتني طريق ورجعت واحنا فيه سوا! لوم على شغلي اللي من أهم شروطه أن تكون الواحدة خبرة وبميه لسان عشان تعرف تلاغي الزبون!

- بس كل الحاجات دي ممكن تتغير، الشغل والمجتمع السيء اللي انتي فيه. كل حاجه ممكن تتغير لو انتي عايزه.

- انت بتقول كده عشان دي شغلانتك. بياع كلام مش اكتر.

- لو علي شغلي انا ممكن اقولك خدي الأدوية اللي انا كاتبها واقعد شويه وبعدها اقولك اتفضلي، بس أنا عايز أساعدك.

أجهشت في البكاء مرة أخرى إثر نبرة العصبي في حديث الطبيب ولكنها أكملت كلماتها في أثناء البكاء:

- أنا مش قادرة أساعد نفسي، أنا حاسة إني بغرق ومفيش أشاية ممكن تنجدني.

- طب اهدي، انا اسف بس والله أنا عايز أساعدك، خدي منديل.

التقطت المنديل من يديه وكفكفت دموعها.

- أنا ممكن أمشي؟!

- أه ممكن مفيش مشكله وتقدري تحددي ميعاد الجلسة الجايه وقت ما تحبي، بس ياريت تهتمي بصحتك شويه وتاخدي العلاج بانتظام.

- خلاص ماشي.

لحظات من الصمت ثم أغلق الشريط..

نظر المحقق للطبيب بعصبية حاول كتمها قدر المستطاع.

- إيه خلاص كده.

- أيوه يا فندم.

- كان نوعه إيه العلاج اللي كانت بتاخده يا دكتور.

- كنت كاتبلها مضادات اكتئاب، وحاجات للهلوسه والخيالات!

- وهي كانت بتشوف خيالات.

– ايوة يا فندم وفي بعض الحالات المريض حالته بتطور لخيالات وهلاوس سمعيه وبصريه.

– تفسيرك للحالة ايه يا دكتور. يعني اللي هي كانت فيه كان ممكن يوصلها للانتحار.

– أي مريض نفسي معرض للانتحار المرض النفسي وحش بينهش في المريض وخصوصا لو المريض ده شخص وحيد وفي حالة زي حالة ريهام المريض حالته ممكن توصله لكده.

– اممممم، طب تمام. حضرتك تقدر تمشي دلوقت ولو احتجنالك هنبعتلك!

– طب والأوراق والشرايط؟

– لأ معلش الحاجات دي بقا احراز لحد ما نشوف ام القضيه دي هتخلص علي ايه؟ !

– طيب ماشي وانا تحت أمركم في اي وقت.

....

الساعة السابعة صباحًا.

يستيقظ الطبيب على صوت زوجته التي تعالي صوتها لإيقاظ طفليها.

يقلق الطبيب من نومه في محاولة لتدارُك أمره واستيعاب ما يحدث.

لا تمهله زوجته كثيرًا لأنها يجدها فوق رأسه تمسك بزمزمية مياه حامله شكل سبونش بوب وعلبه بلاستيك تدعي " لانش بوكس "

– صباح الخير يا حبيبي..

قالتها زوجته ببلاهة وهو ما زال غير مستوعبًا

– صباح الخير يا حبيبتي، هو انا جيت امبارح الساعة كام؟!

قالها بتساؤل وكأنه لا يعلم!

– جيت بدري يا مصطفى على الساعة ١٠ كده.

– عشرة!!

– اه يا حبيبي حتى انا سألتك جاي بدري ليه قولتلي تعبان شويه مالك يا حبيبي؟

اندهش الطبيب لما يسمع وكأنه لا يدرك ماذا كان. هل كان يحلم؟!

– لا أبدًا مفيش يا حبيبتي مرهق شويه بس.

– باين عليك يا حبيبي، طب بص انا هنزل اوصل العيال المدرسة عشان انت شكلك تعبان ومينفعش تسوق كدا ماشي.

لم تعطه فرصة لإبداء رأي فأخذت مفاتيح السيارة وصرخت في الطفلين مره أخرى وأخذتهما وأغلقت الباب خلفها.

ظل الطبيب راقدًا على سريره قرابة نصف الساعة في محاولة منه لتدارُك ما حدث.

هل بالفعل تم التحقيق معه؟

هل انتحرت ريهام؟

أم أنه كان اختلاقًا من خياله الواسع وتلاعبًا من صُنع عقله الباطن؟!

أمسك هاتفه وهنا كانت صاعقته الكبرى وقد أكثر من خمس محاولات للاتصال من ريهام، ترى ماذا حدث لها؟ هل اليوم يخفي له شيئًا آخر؟

لم يتمهل كثيرًا وحاول الاتصال بها ولكنه وجد هاتفها مغلقًا.

ساوره القلق كثيرًا ولكنه لم يجد شيئًا يفعله.

قام من سريره للذهاب الحمام لعل الماء يخمد طنين رأسه المنهك.

***

خرج من الحمام بعد قرابة الساعة وهو مازال محتارًا ومفكرًا في أمر ريهام، وماذا يمكن أن يكون حدث.

قرر أن يذهب لعيادته ولكنه تذكر أن زوجته توصل الأطفال بسيارته..

كانت الساعة قاربت على الثامنة والنصف وهو جالس لا يعرف تفسيرًا لما حدث، ترى هل كان يحلم؟! أم ماذا؟

الساعة التاسعة وهو ما زال جالسًا، دخلت زوجته عليه بعدما أوصلت الطفلين إلى مدارسهم ووجدته شاردًا، لم يلاحظ دخولها إلا بعد ما نبهته لوجودها وقالت:

- إيه يا حبيبي لسه تعبان؟

لا، أبدًا يا حبيبتي..

قالها بنبرة تشوبها إرهاق وقلق.

لحظات ودخل غرفته ليبدل ملابسه ثم خرج عليه وأخذ مفاتيح سيارته وودعها سريعًا وتركها في حيرة وقلق جم عليه.

كان قد قرر الذهاب لعيادته ليتأكد أن ملف ريهام ما زال في عيادته وأن ما ساوره لم يكن سوى حلم من اختلاق عقله الباطن..

نصف ساعة في الطريق والقلق والتفكير يعتصران رأسه..

وصل عيادته وأول ما فعله هو البحث في ملفات مرضاه حتى وصل لملف ريهام!

أحس بارتياح كبير للغاية وها هو قد تأكد أنه كان يحلم فقط ولعل اتصال ريهام به جاء محض مصادفة فقط!

ظل جالسًا في العيادة بعينين نصف مغلقين من الإرهاق. دخل المطبخ ليصنع فنجان قهوة لعلها يساعده على الاستيقاظ.

أحضر القهوة وجلس على مكتبه. فتح اللابتوب يتابع صفحات السوشيال ميديا في ملل.

عند الساعة الثالثة حضر سكرتير الدكتور وفوجئ بوجوده مبكرًا:

- خير يا دكتور؟ في حاجة؟

- لا أبدًا مفيش يا محمود. هو احنا خلصنا إمتا إمبارح؟!

- حضرتك مشيت بدري يا دكتور يعني علي **9.30** كده وقولتلي اقفل علطول عشان حضرتك تعبان شويه!

- خلاص ماشي. عندنا مرضي كتير النهارده؟

- لا أبدًا..تلات أربع زباين كده.

- طب تمام اي حد يجي غير المواعيد دي اديلو معاد الأسبوع الجاي.

- حاضر يا دكتور.

***

أمضى الطبيب يومه في رتابة شديدة وذهن شارد تمامًا حتى الساعة الثامنة مساء وحينما انتهى من آخر المرضى فوجئ بوجود شخص آخر بالخارج!

بعد خروج المريض مباشرة دخلت انثي في منتصف عمرها تقريبًا. حالتها يرثى لها رغم محاولاتها البائسة بترميم وجهه ببعض مساحيق التجميل.

وقفت على الباب ورقعته بخبطتين.

نظر الطبيب ناحية الباب ليرى من الطارق وقد صعق بأنها ريهام!

وهي مستندة إلى الباب وبيديها سيجارة وتقولي له:

- مساء الخير يا دكتور!

في بلاد الصم والبكم

لارا "ومن الحب ما قتل"

يوجد قصه ل هـ.ج. ويلز وقد كتب عنها الدكتور أحمد خالد توفيق تحمل اسم بلد العميان.

أعتذر عن أي تشابه أو تأثر بينها وبين ما قد كتبت..

لارا "ومن الحب ما قتل"

استيقظ وهو يشعر أن طبول الكون بأكمله تدق في رأسه. كان رأسه مثقلًا؛ ووجهه ملطخًا بالرمال إثر النوم عليها!

حاول استجماع قواه للنهوض وقد حدث.

نظر حوله في محاولة بائسة لإدارك ما حدث، ولكنه لم يستطع. وجد نفسه على شاطئ بحر نقي للدرجة التي تجعلك أن ترى أعماقه!

ماذا أتى بي إلى هنا؟

وأين أنا؟

تلك الأسئلة التي ظل يسألها لنفسه طوال ثلاث ساعات ولم يستطع أن يجد الإجابة.

قرر النهوض للبحث عن أحد علّه يجيبه عن أسئلته التي عجز عن إجابة نفسه بها. سار بين أحراش الأشجار التي بدت جزءًا من غابة، سار حتى خارت قواه وجثا على ركبتيه في محاولة لتفادي الإغماء إثر التعب. ظل محدقًا إلى الأرض لدقائق حتى رأى أمامه قدمين مفلطحتين وحافيتين تقفان أمامه مباشرة. انتفض من الفزع حينما نظر لأعلى فوجد شخصًا طوله يزيد عن مترين، ضخم الجثة ومكور الرأس ووجه صارم التعبيرات التي لا تبشر بالخير.

نهض في محاولة للتفاهم معه ولكنه فوجئ بأن الرجل هذا لا يتحدث!

ظل الرجل يشير له بإشارات لم يفهمها في البداية، ولكنه بدت أقرب بإشارات الصم والبكم.

كان الرجل يحمل على وجهه علامات غضب عاتية فظل يهز في الرجل ليجبره على الإشارة له باي إشارة يفهمها بينما الآخر ظل ينطق بالكلمات بصوت عالٍ على أمل أن يفهم منها شيئًا، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يفهم الآخر.

ظل الجدال بينهما لدقائق حتى صفعه الضخم على وجهه فسقط مغشيًا عليه.

حينما استيقظ وجد نفسه وسط أناس يحاوطونه بشكل دائري كامل. جميعهم يرتدون سراويل واسعه فقط! أجسامهم ضخمة، ويحملون جميعًا نفس الشكل تقريبًا، ويتهامس بعضهم مع بعض ويشاورن بلغة ربما هي فعلًا لغة الإشارة.

وجد بينهم شخصًا وحيدًا مختلفًا. يرتدي قميصًا وسروالًا ضيقًا ونعلًا جلديًا. تجاوز الجميع واقترب منه وأعطاه ورقة مكتوبة بلغة غير مفهومة، وحاول أن يوصل له أنه لا يفهم ما في الورقة فأخذها منه وكتب بلغة أخرى لم يفهمها أيضًا!

ظل الوضع هكذا حتى كتب الرجل بلغة تشبه العربية. كتب بعض الكلمات التي حاول استجماع معناها وقد وجد أنها تعني أنك موجود هنا

في دوله الصم والبكم لا لغة لدينا سوى الإشارة. إذا أردت أن تنال الحياة معنا عليك أن تشرب من نهرنا الخالد.. النهر الخالد سر السعادة والحياة معنا. ستكون واحدًا منا حينما تفقد صوتك مثلنا، عليك أن تشرب من النهر لكي تكون فردًا منا، وإلا فلن يتعامل معك أحد وستموت جوعًا.

صُعق وبهت عندما قرأ هذه الكلمات بصعوبة بالغة وظل يحدق إلى الجميع خوفًا منهم. ظل يشير له بيده ويصرخ بلا كثيرًا ولكن لم يفهم منه أحد سوى الشخص الغريب عنهم والجالس بجانبه.

أخذ منه الورقة وكتب بنفس اللغة بضع كلمات مرة أخرى ثم ألقاها في وجهه.

كُتب في الورقة.

لا سبيل لك سوى الشرب من النهر ومحاولة العيش هنا. أنا كنت مثلك منذ زمن بعيد، والآن أنا مثلهم. إما العيش كما العامة، وإما الموت في الغابة من الجوع والعطش.

قرأ الكلمات وأصيب بخيبة أمل بالغة. ماذا عساه أن يفعل؟ ما الذي قد أتى به إلى هنا؟

لا يستطيع تذكر أي شيء.

اللعنة على العامة واللعنة على أولئك رددها في نفسه وركض كالسهم من بينهم في اتجاه الغابة. ظل يركض حتى بلغة التعب وحينما نظر خلفه فوجئ بأن لم يتبعه أحد!

علهم تركوه ينجو أو تركوه للموت؟

أصابه الإغماء من التعب ومن الجوع ومع طلوع الشمس طاف المكان كله على أمل أن يجد شيئًا يسد جوعه ولو قليلًا. عثر على شجرة بها ثمار تشبه التفاح، ولكن لونه كان يميل إلى البرتقالي. ظل يتفحصه قليلًا ثم استجاب لنداء معدته فقضم من قضمة واحدة وتذوقها فوجودها رطبة بعض الشيء، ولكنه صالحه على جميع الأحوال، فأكل بعض الثمار منها حتى أشبع معدته ثم جلس يستظل بها في محاولة للتفكير بحاله.

ظل يحدث نفسه ليسمع صوته الذي يبدو أنه الشيء الوحيد الذي يملكه في بلاد الصم والبكم.

ترى بماذا يفيد الصوت في بلدة لن يسمع فيها أحد أي صوت. بماذا يفيده إذا لم يستطع شرح ما به.

ظل الوضع هكذا حتى غابت الشمس وبدا الظلام مرعبًا. لا أحد يؤنسه ولا أحد يؤتمن.

أصابته حمى وشعر بجسده والحرارة تخرج منه كحرارة موقد أو إناء به ماء مغلي.

أغمي عليه حتى أيقظته شمس الظهيرة مرة أخرى وقد هدأت حرارته قليلًا، رغم أنه ما زال يعاني الحمي التي يبدو أن الثمار التي أكلها قد أصابته بها.

ظل يفكر هل سيهلك هنا أم سينجو بأي وسيلة. ولكن أين الوسيلة إلا عند أولئك الذين تركوه وهم على يقين أنه إما سيهلك وإما سيعود إليهم رغمًا ليسلمهم صوته في سبيل الحياة معهم إذا بما يفيد الكلام ما دام لا يوجد من يستمع إليك؟

ظَلّ يرددها وهو يتأرجح بين الشك واليقين في أمره، وهو يفكر فعلًا بمنع صوته من الخروج مرة أخرى، وإلى الأبد للعيش وسط البكم.

قرر التحامل على نفسه، ولكن في سبيل الوصول إلى أولئك الغرباء أو الذين سيصبحون أقرباء منه بعد أن يعرفوه ويأخذون صوته منه بإرادة العيش فقط!

ظَلّ يمشي قليلًا ويهرول حتى يصل إليهم وقد كان.

استقبله ذلك الشخص الوحيد الذي يبدو مألوفًا بعض الشيء إلا أنه أيضًا من أولئك البكم.

لم يستغرق الوقت طويلًا حتى سلمة إناء به ماء ممزوج ببعض الأوراق التي تشبه أوراق الشجر ثم كتب له أن هذه ستكون آخر فرصة لك لتنضم إلينا وبمجرد شرب ما في الإناء سيتعافى وسيصير واحدًا منهم.

قرا الورقة وخفض رأسه في ذل وخنوع وبيدين مرتعشتين تناول الإناء وبداخله صراعات بين غريزة البقاء وبين سلب حريته بإرادته. أمسك الإناء ثم رفعه حتى لامس شفتيه ثم فجأة هدأ كل شيء!

استيقظ ولكن هذه المرة وهو في سرير سرعان ما علم أنه سريره!

وجد رنين هاتفه يتعالي بنغمات منبه تشير بأن الساعة التاسعة هي موعد استيقاظه. تحسس وجهه فوجده غارقًا في العرق، ولكن بدون حمى!

صرخ ليتأكد أن صوته ما زال يصرخ وقد كان. خرج الصوت من حنجرته عاليًا أجش كعادته. اختلطت دموعه بصوت ضحكاته العالية على ذلك الحلم اللعين الذي قد أصابه. حدق إلى الغرفة فوجدها كما هي فظل يصرخ بصوته ويهلل بكلمات الفرح على نجاته من ذلك الحلم.

ولكن ترى هل فعلًا كان يجوز له أن يتخلى عن صوته في ظل وجود الصم والبكم حوله في كل مكان؟

هل يجوز لإنسان أن يكتم صوته بإرادته لمجرد أن من حوله لا ينطقون ولا يسمعون؟!

***

في النهاية

حاولت أن أنظر للأمور بواقعية، ولكني وجدت أن الواقع كئيبًا أكثر مما أتخيَّل..

الحياة صعبة والحزن لا يترك أحدًا وأننا جميعًا مصابون بلعنة النهايات الحزينة والحزن المستمر والحنين الدائم للذكريات والراحلين..لا تعاتبوني بسبب سوداوية كتاباتي؛ لأن العالم يحمل بداخله أسوأ من هذا بكثير...

سيد عبد الحميد.

الفهرس